محمد محمد فياض

تيمورلنك

اقرأ ١٣٩
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٣٩ - أول يوليو ١٩٥٤



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

تيمورلنك هو آخر الشخصيات الفذة التى سجل لها التاريخ اسم الغزاة أو الفاتحين . إذ لم يحاول رجل بعده أن يسود العالم بحد السيف إلا أصابته الهزيمة وباء بالفشل . فنابليون لمع نجمه فترة من الزمن وكان مصيره النفى إلى جزيرة صغيرة بعيدة عن العمران . وغليوم الثانى إمبراطور ألمانيا ذو اليد الحديدية ، تنحى عن عرشه ولجأ إلى بلدة أجنبية فآوته إلى أن ضمه القبر . وهتلر الذى اكتسح أوروبا ونشر الرعب فى أمريكا توالت عليه الخطوب وقضى آخر أيامه فى مخبأ تحت الأرض ثم انتحر .

أما تيمورلنك فكانت حياته سلسلة انتصارات متعاقبة . زلزلت العروش وهوت بالتيجان وأذلت الشعوب ، ومهدت له سبيل السيادة المطلقة على نصف العالم المعروف فى عصره . ومات وهو فى أوج عزه ومنعة سلطانه .

وظهر قبله من الغزاة إسكندر المقدونى . ولكن هذا ورث

الملك عن أبيه فيليب ، ووجد بجانبه جيشاً قوياً له ماض مجيد ، فاتخذه نواة لفتوحاته . أما تيمورلنك فلم يكن من سلاله الملوك ولم يرث عن أبيه سوى قطعة أرض زراعية وبعض الماشية .

وتاريخ الإسكندر معروف بتفاصيله ، ويسهل تتبعه من مولده إلى وفاته . أما تيمورلنك وهو أقرب إلى عصرنا من الإسكندر بنحو ستة عشر قرناً فتاريخه مهمل مجهول ، ولا يعرف عنه إلا ناحية من حياته جعلته بغيضاً ممقوتاً . وهى نزعته إلى التخريب وسفك الدماء . كلما ذكر اسمه ذكرت . كأنه اختص دون سواه بهذه الوصمة . وأنه لمن حقه على التاريخ أن تصور حياته بنواحيها المختلفة ليتبين منها الغث والسمين .

وقد فطن تيمورلنك إلى أن العالم قد لا ينصفه ، فأمر كتاب ديوانه فى العهد الأخير من حكمه أن يدونوا الحوادث اليومية فى سجل خاص . وفى سنة ١٤٠٠ م أعطى هذا السجل لعالم فارسى يسمى « نظام الشمس » ليضع منه تاريخاً لحكمه ، مراعياً فيه سهولة التعبير مع تجنب المدح والإطراء . وانتهى « نظام الشمس » من عمله سنة ١٤٠٤ م قبل موت تيمورلنك بسنة واحدة . وقد كتبه باللغة الفارسية وسماه « ظَفَر نامة » أى كتاب النصر . ولا توجد الآن سوى نسخة واحدة منه ، وهى

محفوظة بالمتحف البريطانى .

وكتب « على اليزدى » المعروف « بشريف الدين » تاريخاً آخر بالفارسية سماه أيضاً « ظفرنامة » . وواضع هذا التاريخ رافق تيمورلناك فى كثير من غزواته ورحلاته وقضى باقى حياته فى بلاط ابنه شاه رخ بمدينة هراة فى خراسان . ويؤخذ عليه أنه امتدح كل أعمال تيمورلنك وبرر سيئاته بعبارات منمقة جوفاء .

وهناك تاريخ ثالث يسمى « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » وضعه « شهاب الدين أبو محمد أحمد المعروف بابن عرب شاه » وقد كان فى خدمة السلطان أحمد الجلايرى ببغداد ، ثم انتقل إلى سمرقند . ويمتاز بدقته وحسن أسلوبه ، إلا أنه مملوء بالنقد اللاذع ، الذى يصل أحياناً إلى حد السخرية . وقد ترجم هذا التاريخ إلى الفرنسية سنة ١٦٥٨م .

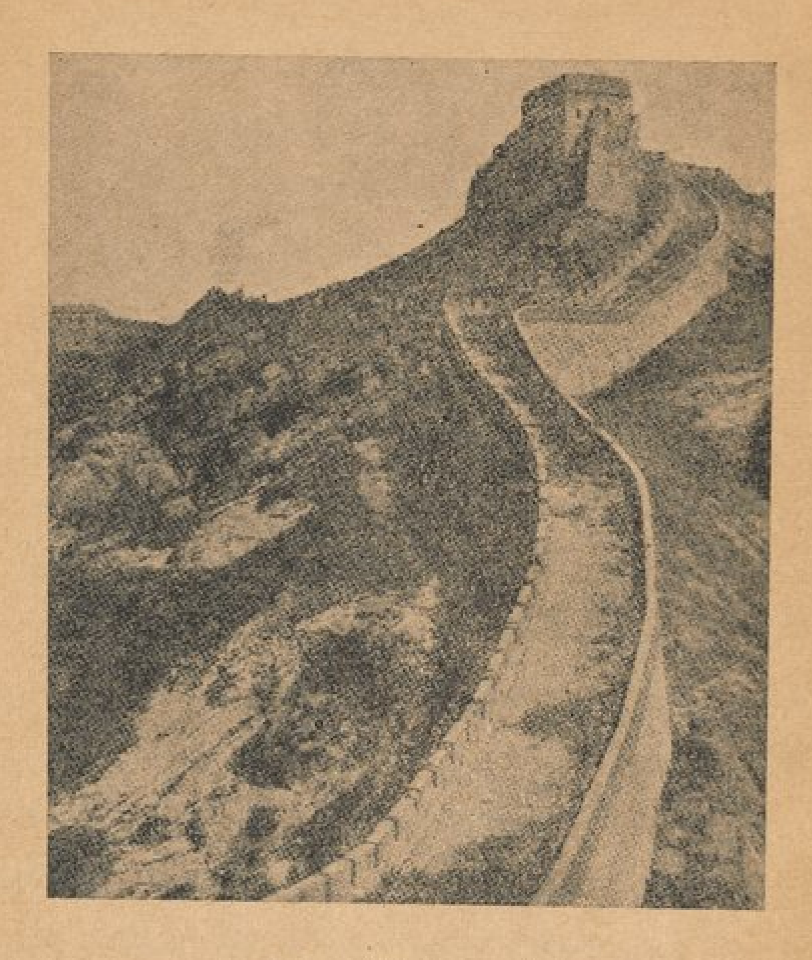
وقد اتخذت هذه المصادر الثلاث أساساً لتواريخ أخرى وضعها علماء من آسيا وأوربا ، فأصبحت حياة عاهل التتر مدونة واضحة المعالم ، ميسرة لمن يبغى الوقوف عليها .

والاسم الأصلى لتيمورلنك هو تيمور ومعناه بالتترية الحديد . وحقاً أنه كان صلباً قاسياً كالحديد . وقد أصيب فى معركة مع أهل سجستان بسهم فى قدمه اليمنى ، سبب فيها عرجاً

مستديماً ، وسماه أعداؤه « تيموري لانج » أى تيمور الأعرج . وعربت هذه الكلمة إلى تيمورلنك ، وأصبحت علماً عليه . أما الإفرنج فيسمونه تمرلان Tamer lane ويجدر بالمؤرخين أن يسموه باسمه الأصلى . وهذا ما سنتبعه من الآن .

وهو منسوب إلى التتر الذين اندمجوا فى المغول فى مستهل القرن الثالث عشر . والتتر والمغول جنسان مختلفان وإن تشابها فى بعض الصفات . وكانت قبائلهما منتشرة على حدود الصين فى صحراء جوبى وسيبيريا . ولم يكن لهم مقام مستقر . يتبعون المرعى والأرض الخصبة ، ويميلون بطبيعتهم إلى الارتحال الدائم . وقد اعتادوا أن يغيروا على البلاد الصينية ، ويعودوا منها بالأسلاب والغنائم . واضطرت الصين أن تبنى سوراً على حدودها لتصد أذاهم عنها .

ويرجع عهد هذا السور إلى سنة ٢١٤ قبل الميلاد ، حيث شرع فى بنائه الإمبراطور « شى هوانج تى » . وهو مصنوع من الطوب الكبير الحجم والجرانيت . ويبدأ من ساحل البحر بقرب بكين ، ويمتد على الحدود مسافة ١٥٠٠ ميل ، متتبعاً تعرجات الأرض الطبيعية ، فيمر فوق السهول ويجتاز الأنهار ويهبط فى الوديان ويرتفع إلى قمم الجبال . وتتخلله أبراج محصنة للحراسة يبعد أحدها عن الآخر بنحو ثلاثين متراً . ويبلغ عرض حافته العليا خمسة أمتار . ويزيد ارتفاعه فى المتوسط على ستة أمتار .



قطاع من حائط الصين العظيم

ويعتبر هذا السور من أروع وأعظم ما صنعته يد الإنسان .

وكانت مضارب القبائل التترية أقرب إلى الصين من القبائل المغولية ، فأطلق الصينيون اسم التتر على جميع القبائل الرحل التى تعيش وراء حدودها. وفيهم التتر والمغول والأتراك وغيرهم.

وظهر فى صحراء جوبى زعيم مغولى يسمى جنجيز خان . استطاع أن يضم حوله شتات العشائر المغولية ، وأن يخضع التتر لحكمه . ثم غزا الصين وكوريا وأواسط آسيا ، ووصلت جحافله إلى نهرى الفولجا والدون بروسيا . وأطلق الروس اسم التتر على أتباعه وعسكره لسبب غير معروف ، وقلدهم الأوربيون فى هذه التسمية . ويرجح أن مقدمة جيش جنجيزخان التى بدأت بغزو روسيا كانت من العناصر التترية .

وكان المغول يكرهون أن يسموا بالتتر ، ويعتبرون أنفسهم سادة لهم . فالبلاد الخاضعة لهم هى الإمبراطورية المغولية ، وعاهلها هو خان المغول الأعظم . وذريته تتولى العرش بعده . وقد يحظى التتر بمرتبة الأمراء أو القواد ، ولكنهم لا يرثون العرش .

وانقلبت الآية فى عهد تيمور ، فدان المغول للتتر ، واختفوا وراء الستار . وسميت البلاد التى فرض هذا الرجل حكمه عليها إمبراطورية التتر . وتوارثها بعده أبناؤه وأحفاده . وتلك الأيام نداولها بين الناس .

جنجيز خان

كثيراً ما يرد ذكر جنجيزخان فى سيرة تيمور . ويجدر بمن يقرأ هذه السيرة أن يلم بتاريخ تلك الشخصية النادرة المثال . ولو فى صورة موجزة ليتيسر له أن يتبع الحوادث التاريخية ويدركها بفهم سليم .

كانت صحراء جوبى الممتدة شمالى الصين مرتعاً لقبائل متناثرة من المغول . تعيش على البداوة الأولى ، وتميل إلى الارتحال الدائم . إذا أجدبت أرضها حملت خيامها ومتاعها وساقت ماشيتها وخيولها إلى مكان خصيب . وفى إحدى هذه القبائل ولد جنجيزخان سنة ٥٥٨ هـ — ١١٦٢ م . كان أبوه « يزوكا » زعيماً للقبيلة ، وخرج مع نفر من رجاله ليغير على قبيلة أخرى معادية له ، وعاد بعد أن أسر زعيمها المسمى « تيموشين » . وعلم أن زوجته قد وضعت غلاماً ، ففاض قلبه سروراً وأخذ يداعب ابنه فأبصر فى يده كتلة من الدم متجمدة ، فتفاءل بهذه العلامة ، واعتقد أنه أنجب بطلا يقود الجيوش ويثير حرباً شعواء تراق فيها الدماء غزيرة. وأطلق عليه اسم عدوه تيموشين. وهذا المولود هو الذى عرف فيما بعد باسم جنجيزخان .

وشب تيموشين بين أحضان قبيلته ، وعنى أبوه بتدريبه على الفروسية وروضه على الصبر واحتمال المكاره . وكثيراً ما كان يستصحبه فى غزواته ومغامراته .

رأى وهو فى الثالثة عشرة من عمره فتاة لم تبلغ التاسعة ، تسمى بورتاى ، فأحبها وأراد أن يتزوجها ، وأخبر أباه أنه لا يطيق الحياة بدونها . وكان أبوها زعيماً لقبيلة مجاورة وصديقاً حميماً ليزوكا . فقبل أن يصاهر تيموشين ، ولكنه أرجأ الزواج إلى أن تكبر الفتاة وتستكمل أنوثتها . وذهب تيموشين إلى خطيبته يحمل إليها هدية متواضعة ، ومكث بضعة أيام ضيفاً على أبيها . ويشاء القدر أن ينقلب سروره حزناً . إذ جاءه رسول من والدته يخبره أن أباه مات مسموماً بمكيدة دبرها له أحد أعدائه ، فبادر بالرحيل إلى قبيلته وقد برح به الهم والألم . ولم تقف المأساة عند هذا الحد ، لأن رجال القبيلة حزموا أمتعتهم واستعدوا لمغادرتها متوهمين أن زعيمهم الجديد قليل الخبرة لصغر سنه ، لا يستطيع أن يقودهم إلى الغزوات التى يغنمون منها المال والسبايا . ويعجز عن تدبير الدفاع عن القبيلة ضد أعدائها ، فأولى بهم أن ينضموا إلى زعيم آخر يطمئنون إلى قيادته .

وحاول تيموشين أن يستبقيهم معه ، ولكن جهوده ذهبت هباء ، فشدوا رحالهم منصرفين عنه ، ولم يمكث معه سوى نفر



أطلق نيموشين ساقيه للريح

قليل ممن أخلصوا لأبيه .

ولم يستطع تيموشين بعد انحلال قبيلته أن يحتفظ بالأرض التى ورثها عن أبيه . إذ أغارت عليه قبيلة معادية ، وحاول الفرار فلم يفلح ، وقبض عليه وقيد بآلة تسمى « الكانج » كانت شائعة الاستعمال بين المغول . وهى أشبه بنير ثقيل من الخشب يحيط بالعنق والكتفين ويوثق اليدين ، فلا يستطيع حاملها تحريكهما . ثم سجن فى حظيرة إلى أن يلقى حتفه فى صباح اليوم التالى . وترك معه حارس ليمنعه من الفرار .

وعز على تيموشين أن يحرم نعيم الحياة وهو فى ميعة صباه ، فلم يغمض له جفن ، ولم تكف عيناه عن سكب الدموع . ورأى فى الهزيع الأخير من الليل حارسه يتثاءب طلباً للنوم ، فاستجمع قواه وحرك كتفيه حركة عنيفة ، وهوى على رأس الحارس بضربة قوية من الآلة التى كان مقيداً بها فخر مغشياً عليه . وأطلق تيموشين ساقيه للريح ، مبتعداً عن مضارب أعدائه . وتلفت خلفه فرأى رجالا يقتفون أثره ، فجد فى السير حتى وصل إلى نهر جمد ماؤه من شده البرد . وبالرغم من ثقل القيد الذى كان يحمله ، غاص فى الماء المثلوج ، وعام تحت سطحه بأقصى سرعة يحتملها فتى فى سنه . وكان يرفع رأسه فوق الماء بحذر ليستنشق الهواء . ولما قطع شوطاً طويلا بهذا

الجهد المرهق ، وأيقن أنه ضلل مطارديه ، خرج من النهر واتجه إلى كوخ صغير رآه من بعد ، وما إن وصل إليه ، حتى خارت قواه واعتراه إغماء شديد . ولما أفاق وجد نفسه محاطاً بأغطية ثقيلة بعثت فى جسمه الدفء ، وقد أزيل عنه القيد . ورأى أمامه رجلا طاعناً فى السن فشكره على عطفه ومروءته وروى له قصته . فاغرورقت عينا الشيخ بالدموع وهنأ تيموشين على شجاعته وجرأته مع صغر سنه ، ثم أعطاه فرساً ونصحه أن يغادر الكوخ قبل أن يكشف أحد أمره .

وكان لهذه المآسى التى فجع بها تيموشين أبلغ الأثر فى نفسيته ، فهو لم يقترف ذنباً ولم يسئ إلى أحد ، ومع هذا فقد توالت عليه الخطوب وكاد يفقد حياته ، لولا توقد ذهنه وقوة احتماله وبسمة صادفته من الحظ ، وقد استهان بعد ذلك بأرواح الناس فلم يقم لها وزناً .

وبحث تيموشين عن أمه حتى وجدها مع نفر قليل من أنصاره الذين ظلوا على وفائهم له . وفكر فى أن يلجأ إلى والد خطيبته ويعيش تحت كنفه ، ولكن كبرياءه أبت عليه أن يظهر أمام حبيبته مستضعفاً مهاناً ، فوطد عزمه على أن يكافح حتى يستعيد ما فقده من ملك أبيه . وبدأ حياته الجديدة بقطع الطريق على المسافرين والإغارة على القوافل ، مستعيناً بأعوانه

القليلين . وقد هيئ له الفوز فى مغامراته لبسالته واستهتاره بالحياة وحسن قيادته لأتباعه . فانضم إليه الرجال تباعاً . ولما بلغ السابعة عشرة من عمره كان قد اجتمع له جيش صغير فسار على رأسه ضد أعدائه ، وانتزع منهم أرض أبيه ، وغلبهم على أمرهم ووطد مركزه فى ملكه المتواضع ، فأصبح زعيماً مهيباً تخشى بأسه القبائل الأخرى .

ولم ينس تيموشين فى هذه السنوات الأربع تلك الفتاة التى سلبت لبه ، فسار إليها فى موكب حربى عظيم ، واستقبله والدها بمظاهر الفرح والترحاب ، وهنأه بأعماله المجيدة . وأقام معالم الزواج فى حفل رائع . وعادَ تيموشين بزوجته إلى مضارب قبيلته ، وقد امتلأ قلبه بشراً وسروراً .

وبدأ الطور الثانى من حياة تيموشين ، فأخذ يغير على القبائل المجاورة ويرغمها على الانضمام إليه والخضوع لحكمه . ثم توسع فى أعماله الحربية ، فشن هجوماً على القبائل النائية فلم تستطع مقاومته واضطرت أن تدين له بالطاعة . وواصل هذه الخطة حتى أصبحت الأراضى الواقعة تحت نفوذه ممتدة من بحيرة بايكال إلى جبال كنجان على حدود منشوكو الحالية . واعترفت له بالسيادة جميع القبائل المغولية والترية .

وبلغ تيموشين الثانية والأربعين من عمره ، فألقى بجانبه

جيشاً جراراً زاخراً بالرجال والعتاد ، فاعتزم أن يخرج من الأرض المجدبة إلى الخصب والعمران ، وجمع رؤساء القبائل ونادى بنفسه أمبراطوراً باسم جنجيزخان . « وجنجيز » كلمة مغولية معناها المحارب الكامل . أما كلمة خان فمختصرة من خاقان التى كانت تطلق على الملوك بين قبائل المغول والأتراك .

وهنا بدأ الطور الثالث من حياة عاهل المغول . فبرز إلى العالم المتمدن قاصدا غزوه واستعباده . وشن عليه حربا شعواء لا عهد للإنسانية بمثلها . وكانت له ثلاث وسائل لا يحيد عنها : القتل والسبى والتخريب . إذا سار ترك وراءه أرضاً قاحلة لا نبت فيها ، ومدناً مهدومة من أساسها ، وجثثاً هامدة تغطى أديم الأرض . اجتاح بلاد الصين حتى نهر سيكانج ، واتجه غرباً فغزا خوارزم وبخارى وسمرقند ونيسابور وأذربيجان واستراخان ، ووصلت جحافله إلى نهر الدون فى روسيا .

والتقى فى خوارزم بجيش قوامه ٤٠٠,٠٠٠ رجل ، فقتل منهم مائة وستين ألفاً ، وأكره الباقين على الفرار . ولما دخل بخارى وقف بباب المسجد وقال لجنوده « لقد قطعنا الخليج فأطعموا خيولكم » فانصرفوا للسلب والنهب وهتك الأعراض ، ثم أشعلوا النار فى المدينة . وقاومته نيسابور بضعة أيام فكان جزاؤها ذبح رجالها ونسائها وأطفالها .

وواصل جنجيزخان فتوحاته إلى أن أصبح سيداً على خُمس الكرة الأرضية ، وامتدت إمبراطوريته من أرمينيا غرباً إلى كوريا شرقاً ، ومن هضبة التبت جنوباً إلى نهر الفولجا شمالا .

ولما بلغ الخامسة والستين من عمره أصيب بمرض عضال ومات على الأثر ، وحملت جثته إلى واد على ضفاف نهر الكيرولين ودفنت هناك .

وورث الملك بعده ابنه أوجداى خان واتخذ مدينة كراكورم بمنغوليا عاصمة له . وكان قائداً ماهراً ذا خبرة واسعة بتنظيم الجيوش وتدبير الخطط الحربية . استطاع أن يغزو الجزء الباقى من الإمبراطورية الصينية ، ثم قاد جيوشه إلى الروسيا سنة ٦٣٣ هـ — ١٢٣٥ م فاكتسحها وجعل منها ولاية مغولية ، وانحدر إلى بولندا فخربها واحتل المجر بعد أن مثل بأهلها أشنع تمثيل .

ومات أوجداى فجأة سنة ٦٤٠ هـ — ١٢٤٢ م وقام نزاع على وراثة العرش ، واضطر المغول أن يرحلوا من أوربا قانعين بولاياتهم الأسيوية . واستولى على العرش مانجو خان سنة ٦٤٩ هـ — ١٢٥١ م فولى أخاه قبلاى خان إمبراطوراً على الصين . وسير أخاه الثانى هولاكو ليغزو غرب آسيا . وكان

هذا عدواً مبيناً للإسلام . ففتح بلاد الفرس وسورية ، وهدم بغداد ليقضى على الخلافة الإسلامية ، وقتل معظم سكانها ، ثم هبط إلى فلسطين قاصداً مصر . ولكن المصريين هزموه سنة ٦٥٩ هـ — ١٢٦٠ م وبددوا جيشه وأنقذوا العالم الإسلامى من شروره .

وعقب هذه الهزيمة توقف تيار الفتوحات المغولية ، وانقسمت الإمبراطورية إلى أجزاء يحكم كل منها خان مستقل ، وتبع انقسامها فى الحكم انقسامها فى الدين ، فالمغول القاطنون فى شرق آسيا اعتنقوا البوذية . والمقيمون منهم فى أواسط آسيا وغربها دخلوا الإسلام .

وفى سنة ٧٧٠ هـ — ١٣٦٨ م إستطاع الصينيون أن يطردوا المغول من بلادهم . وظلت الحال كذلك إلى أن ظهر تيمور .

نشأة تيمور

ولد تيمور سنة ٧٣٦ هـ — ١٣٣٦ م ميلادية ، فى مدينة صغيرة تسمى « كش » . وهى تقع جنوبى سمرقند بنحو ٥٠ ميلا . وكان يحلو لسكانها أن يسموها « شابرى سابز » أى المدينة الخضراء .

وكان أبوه طرغاى شيخاً محبوباً فى قبيلة البرلاس الترية . امتاز بالتقوى والقناعة والزهد فى متاع الدنيا. لايشغله إلا التحدث مع رجال الدين وبخاصة من حج منهم مكة وزار مقام النبى .

وشب تيمور بين أطفال قبيلته يلهو و يلعب معهم . إلا أنه كان رزيناً كالطود، لا يميل إلى المجون . فلم يعرف عنه أنه ضحك مرة أو أن شفتيه انفرجتا عن ابتسامة . وكان نشاطه فى اللعب مقصوراً على تقليد المعارك الحربية من هجوم أو دفاع أو حصار . وكان دائماً هو القائد لأقرانه فى اللعب .

تعلم من صغره ركوب الخيل ، واستعمال القوس والسيف ، وتدرب على صيد الطير والوحش . فشب جريئاً قوى البنية . ومن مهاويه المحبوبة الشطرنج والبولو . وكثيراً ما كان يقرأ القرآن .



مصور تقريبى للمواقع الشهيرة التى ورد ذكرها فى هذه القصة

ماتت أمه وهو صغير . واعتزل أبوه العالم وأقام فى صومعة يتعبد بها . ولما ودع ابنه قال له : « إنى رأيت الدنيا أشبه بكأس ذهبية مملوءة بالعقارب والثعابين ، فزهدت فيها ؛ وأنصحك يا بنى أن تدعم نفسك بأسس الدين الأربع ، وهى الصلاة والصيام والحج والزكاة . واحترم علماء الدين ، واطاب منهم البركة والنصيحة »

وكانت قبيلة البرلاس تقيم فى واد خصب ترعى فيه ماشيتها وتنمى زرعها . تخضع لملوك المغول ويحكمها عنهم إذ ذاك زعيم من أهلها يسمى حاجى برَلاس وهو عم تيمور . وقد ساءت أحوال القبيلة فى عهده ودب فيها الفساد واختل الأمن . وكان يخشى تيمور ويسيء به الظن ويبغضه ، فهجر تيمور بلده ورحل إلى « سالى سارای » حيث يقيم كزجان أمير سمرقند من قبل المغول . فاستقبله بالترحاب وسمح له بالإقامة مع حاشيته ، إذ كان يعرف أنه من أسرة عريقة ، كان منها القواد العظام أيام جنجيز خان .

وكان تيمور إذ ذاك قد سلخ الحلقة الثانية من عمره . قوى الجسم ، واسع الصدر ، عالى الكتفين ، كبير الرأس ، عريض الجبين ، أسود شعر الشارب واللحية . وجهه ذو عظم كبير بارز كأفراد جنسه ، وعيناه سوداوان تنظران بحدة وثبات ،



تيمور فى الخمسين من عمره

دلالة على قوة الشخصية والثقة بالنفس .

وقد حدث فى أحد الأيام أن أغار جماعة من الفرس على الحدود الغربية ، وعادوا بأسلاب كثيرة . وأراد كزجان أن يختبر شجاعة تيمور ، فأمره أن يتعقب اللصوص ويستعيد ما سلبوه . فاغتبط بهذه الفرصة التى سنحت له ليظهر فيها بسالته وقوة بأسه واستصحب معه نفراً قليلا من الجند ، وجد فى أثر اللصوص حتى عثر عليهم بعد بضع ساعات . ودارت بينه وبينهم معركة حامية ، وأصيبوا بهزيمة منكرة ، وفروا مذعورين . واستولى تيمور على الخيول التى كانت تحمل الأسلاب وعاد بها إلى كزجان ، فأمر أن ترد الأموال والأمتعة إلى أصحابها ، ومدح تيمور وأهدى إليه قوسه الخاصة إعجاباً به وتقديراً لشهامته .

وفكر كزجان فى أن يزوج تيموراً واختار له حفيدته ، وهى فتاة بارعة الجمال تسمى « ألجاى » من الأسرة الحاكمة لقبيلة الجلاير ، التى كانت مضاربها فى خوارزم .

وجاءت العروس مع خدمها وجواريها وثروتها من ذهب وجواهر ، وعقد الزواج ، وأقام كزجان لهذه المناسبة حفلا رائعاً وزع فيه الصدقات والهدايا على الحاشية والجند والعلماء ، وأعد الولائم الفاخرة لجموع زاخرة من أفراد الشعب .

وعاش تيمور مع زوجته مغتبطاً بما لمسه فيها من حب ووفاء شديدين . وقد ابتنى لها منزلا متواضعاً فى بلدته ، حيث الأرض والمراعى والماشية التى تركها له أبوه .

ولما بلغ الرابعة والعشرين ، عينه كزجان قائداً لألف جندى ، فامتلأ قلبه فرحاً بهذا المنصب الخطير ، وعامل جنده بالرفق ، وكان يعنى بتدبير شئونهم فى المأكل والملبس والمسكن ، وكثيراً ما كان يستصحب معه نفراً منهم عندما يزور زوجته فى المدينة الخضراء ، ويقدم لهم ما لذ وطاب من ألوان الطعام .

ووضعت زوجته غلاماً فسماه « جاهَنْجير » أى القابض على العالم .

واستغل كزجان شجاعة تيمور وجرأته ، فغزا بعض البلاد الواقعة جنوبى نهر آمو (ويسمى الآن جيحون) واحتل مدينة هَراة ، وأسر أميرها « مالكا » وحمله إلى سالى سراى .

واجتمع أمراء سمرقند وطلبوا من كزجان أن يقتل الأسير ويوزع أملاكه عليهم ، لأنه كان ذا ثروة طائلة . ولكن كزجان رفض ذلك . وتغاضى عن مراقبة الأسير ففر إلى بلده . ولما علم الأمراء بذلك غضبوا وبيتوا أمرهم على قتل كزجان . وتربص منهم اثنان فى غابة كان يتردد عليها للصيد ، وقتلاه رمياً بالسهام ولاذا بالفرار . وحزن تيمور لموت الرجل الذى رعاه

وحماه وأكرمه . وجمع فريقاً من الجند وسار فى أثر القاتلين ، حتى قبض عليهما وفتك بهما .

وقام النزاع بين قبائل التتر على من يتولى الحكم فى سمرقند ، وأعد كل أمير عدته ليقضى على منافسيه . وانتشرت الفوضى واضطر تيمور أن يعود إلى بلده ، وتبعه إليها بعض مئات من الجند . ولم يكد يصل إليها حتى فوجىء بموت أبيه .

قدوم الخان

سمع طُغُلك خان عاهل المغول بالثورة القائمة فى سمرقند ، فأقبل من الشمال ليقضى عليها . وطغلك هذا من أحفاد جنجيزخان . وكان ملكه يشمل سيبريا الغربية وأواسط آسيا . ولكنه لم يحفل بإدارته وتنظيم شئونه وانصرف إلى الانهماك فى الملذات ، وترك البلاد لحكام يصرفون أمورها باسمه . وكان مركز الحاكم مزعزعاً فى بلده أو ولايته . فقد يغتصب منه الحكم زعيم أقوى منه ولا ضير عليه فى ذلك إذا اعترف بخضوعه لطغلك خان .

وكان هناك عهد بين المغول والتتر تبعوه بعد جنجيزخان ولم يشذوا عنه . وهو أن تكون ولاية الملك لأحفاد جنجيزخان من المغول ، أما التتر فلا يكونون إلا حكاماً أو قواداً فى الجيش . وما دام هذا العهد قائماً فلا مطمع لرجل كتيمور إلا فى أحد هذين المركزين .

أقبل طغلك بجيش جرار يبغى قمع الثورة وإضعاف شوكة الأمراء وزعماء القبائل ، وتولية حكام يدينون له بالطاعة ، ثم العودة بما يستطيع أن يجمعه من كنوز وغنائم وأسلاب .

واضطرب أمراء التتر وزعماؤهم ، فمنهم من فر واختفى . ومنهم من مثل بين يدى الخان وأقسم يمين الطاعة والخضوع ، وقدم له الهدايا الثمينة والأموال الطائلة ، وخرج الأمير حسين أخو ألجاى زوج تيمور عن طاعة المغول ، وأقبل من كابل بجيش من الأفغان ، ولكنه هزم واضطر أن يفر وينجو بحياته . أما حاجى برلاس عم تيمور وزعيم قبيلته ، فقد اعتزم ألا يذعن للقوة ، واستعد لمقاومة الخان ، ولكن تيمور لم ينضم إليه اعتقاداً منه أن المقاومة لا تجدى نفعاً ، وأن مصيرها إلى الهزيمة والدمار ، وضياع الأرواح بغير جدوى .

وغضب منه حاجى برلاس وأراد أن ينتهز هذه الفرصة ليقضى على حياته ، لأنه رأى فيه منافساً عنيداً صلب المراس . فدعاه إلى وليمة ، فلبى الدعوة مطمئناً ، ولكنه رأى الغدر فى أعين المحيطين به ، وأيقن أن مكيدة دبرت لقتله ، ففر بحيلة ابتكرها ونجا بنفسه . وقد آلمه أن يقدم عمه على ارتكاب هذه الجريمة الشائنة .

وظهرت طلائع جيش المغول فى أفق المدينة الخضراء تغطى السهل وتملأ الفضاء بضجيجها وصخبها . ففزع حاجى برلاس وأدرك أنه أخطأ فى الخروج على الخان ، وأيقن أنه عاجز عن الوقوف أمامه ، فلم يجد مناصاً من الفرار . وجمع المحاربين من

قبيلته وغادر المدينة الخضراء متجهاً نحو الجنوب فى طريق هراة ، ولكنه لم يعش طويلا . إذ تربص له جماعة من قطاع الطريق ، وسلبوا ما معه من مال ومتاع وقتلوه .

وبقى تيمور فى بلده ومعه أربعون جندياً ممن أحبوه وأخلصوا له ، ولم يريدوا أن يتنحوا عنه فى هذه الظروف العصيبة . وأخذ يفكر فى الوسيلة التى تكفل نجاة المدينة الخضراء من بطش المغول . وتذكر وصية أبيه بأن يطلب النصيحة من رجال الدين ، فذهب إلى شيخهم « زين الدين » ومكث معه ليلة كاملة ، اتفقا فيها على الخطة التى يسلكها . وأصبح تيمور فجمع كل ما يملك من فضة وذهب وجواهر ليستعين بها على تنفيذ مآربه ، وقد أمده زين الدين بما يملك من مال .

وفجأة ظهر فى المدينة ضابط من المغول قدم من سمرقند مع شرذمة من الجند لاستكشاف الطريق ، فاستقبله تيمور واحتفى به وأكرم وفادته ، وأعد له وليمة فاخرة ، ومنحه بعض الهدايا الثمينة ، فقبلها مسروراً ، وحرم على الجنود أن يمسوا المدينة بأذى . ثم قدم له هدايا أخرى ، وطلب منه أن يساعده على المثول بين يدى الخان ، فوعده بتحقيق هذه الرغبة فى الحال . فجمع تيمور بعض أتباعه وأعطى كلا منهم ثوباً فاخراً وجواداً أصيلا وعدة حربية كاملة ، تشتمل على درع وخوذة وسيف

وقوس وسهام . وحمل معه كل ما يملك من مال وسار مع الضابط في رتل حربي مهيب . وفي سمرقند اعترضه ضابطان من حرس الخان ، ولم يسمحا له بالمرور إلى السرادق الملكي ، فاضطر أن يقدم لكل منهما هدية ، فأخليا له ولأتباعه الطريق ، وسهلا له سبيل المثول بين يدي العاهل العظيم . وهناك لم تخنه شجاعته فحيا الخان بتحية الملوك ، وقدم له فروض الطاعة والولاء وقال إنه تيمور زعيم البرلاس أتى من المدينة الخضراء ليضع كل ثروته بين قدمي مولاه ، دليلا على إخلاصه ووفائه . وسر الخان من شجاعته ولباقته وأبدى دهشته من أن يتقدم إليه زعيم صغير بمثل هذا المال الوفير ، وقال : ما أظن أنك حجزت شيئاً لنفسك . قال : كلا يا مولاي . قال : أعتقد أنك صادق . ثم أمره أن يبقى في حاشيته إلى أن يعود إلى عاصمته .

ولما هدأت الثورة وخضع أمراء التتر وزعماؤهم لسلطان المغول ، أقام طغلك خان ابنه إلياس حاكماً عاماً على ولايات التتر ، وأمده بجيش يقوده رجل فظ عنيف غليظ القلب يسمى بيكيجوك . ثم أنعم على تيمور بلقب أمير سمرقند ، على أن يظل خاضعاً لنفوذ إلياس وقائد جيشه . ورحل الخان بعد ذلك إلى عاصمته في الشمال .

تيمور الثائر

لم يغتبط تيمور بلقب الإمارة الذى لا يحمل سوى الاسم ، ولا يمنحه الحرية فى العمل . فعاد إلى بلده مترقباً ما تتمخض عنه الحوادث .

وسار القائد بيكيجوك سيرة سيئة ، فارتكب المظالم والمساءات ، واغتصب أموال الناس ، واستولى على عدد كبير من فتيات سمرقند الجميلات ، وأرسلهن إلى أمراء المغول مدعياً أنهن سبايا حرب . وعلى إثر هذا الحادث فزع علماء الدين وثار غضبهم وعلى رأسهم شيخهم زين الدين . واحتج تيمور لدى الحاكم العام طالباً منه أن يرد الفتيات إلى بيوتهن . ولكنه لم يجد منه نصيراً . فجمع فريقاً من أتباعه وسار فى أثر القافلة التى تحمل الفتيات حتى لحق بها ، وقتل حراسها وأطلق سراح الأسيرات .

وكتب إلياس إلى أبيه طغلك يخبره أن تيمور خرج عن طاعته ، فأرسل إليه يأمره بقتله . وعلم تيمور بما دبر له ، فلم ير بدأ من الفرار والاختفاء فى الصحراء . وحمل معه زوجته الأمينة وطفله الصغير ، وما تبقى له من ثروة ، وانضم إليه

عشرون من أنصاره الأوفياء بخيولهم وعدتهم الحربية .

توغل تيمور فى الصحراء مبتعداً عن سمرقند ، واتجه نحو الغرب قاصداً مدينة خيوه على نهر الآمو . وفى الطريق التقى بالأمير حسين شقيق زوجته وكان طريداً مثله . هام فى الصحراء مع زوجته دلشاد وأربعين من أتباعه المخلصين . وقد جمعت الظروف القاسية بين هذين الشريدين ، فاعتزما أن يثبُتا للكفاح وألا يستسلما للظلم والمهانة .

وصل تيمور ومن معه إلى خيوه بأمان ، ولكن إقامته لم تطل فيها لأن حاكمها فكر فى أن يأسره مع الأمير حسين ويبيعهما للمغول . وأحس تيمور بالخطر فغادر المدينة مسرعاً مع رفقائه . وتبعه الحاكم وبضع مئات من جنوده ، واشتبك الفريقان فى معركة حامية هوت فيها الرءوس من الجانبين . وأبلى الأمير حسين بلاء حسناً . اندفع بفرسه نحو الحاكم وقتل نفراً من المحيطين به ، ولكن أعداءه تكاثروا عليه وكادوا يقتلونه ، لولا أن تداركه تيمور ونجاه منهم . فأخذ يجول بفرسه فى الميدان ويضرب أعداءه بسيفه على الجانبين ، وأصيبت فرسه بسهم فهوت على الأرض . وفى لحظة كلمح البصر كانت زوجته دلشاد بجانبه على فرسها ، فامتطاها معها ونجا للمرة الثانية . ولكنه عاد للقتال بحماسة أشد من قبل . وكان تيمور

شديد الفتك بالأعداء ، ولكنه خشى أن يتفوقوا عليه بكثرة عددهم ، فوطد عزمه على قتل الحاكم ، ورماه بسهم أصابه فى فمه ، ثم وخز جواده ، فأخذ ينهب به الأرض ومر كالبرق الخاطف على الحاكم والمحيطين به ، وصوب نحوه حربة لم تخطئه وقضت على حياته . ودب الذعر فى البقية الباقية من الأعداء ، فلاذوا بالفرار .

وتفقد تيمور أتباعه فلم يجد منهم سوى سبعة ، أما الآخرون فقد ضحوا بأنفسهم فى القتال .

واتفق تيمور وحسين على أن يفترقا لكيلا يكشف أحد سرهما ، وأن يلتقيا بعد ذلك فى بقعة اختاراها فى الجنوب موطن الأمير حسين . واقتسما الخيل الباقية بينهما ، وكانت أربعة فقط . نال كل فريق منهما اثنين . فحمل تيمور متاعه على أحدهما وأعطى الآخر لزوجته وطفلها ، واكتفى هو بالسير على قدميه . وضرب فى الصحراء اثنى عشر يوماً . يأكل من الطير الذى يصطاده ، ويحفر الأرض ليحصل على الماء ، ويتوسد الثرى إذا طلب النوم . وكانت سلوته الوحيدة فى هذه الرحلة الشاقة زوجته الوفية . تواسيه فى كربه وتقوى عزيمته ، وتزيل حزنه بابتسامتها الجذابة وحديثها العذب .

ومر تيمور بقبيلة فارسية عرفه شيخها المسمى « على بج »

فأمر رجاله بالقبض عليه ، فتكاثروا عليه واعتقلوه وسجنوه مع زوجته وابنه فى حظيرة للماشية ، ووضعوا حولها حراساً أقوياء . ومر عليه شهران وهو على هذه الحال . وكان لشيخ القبيلة أخ قوى النفوذ يحكم قبيلة أخرى مجاورة ، علم بما وقع لتيمور ، فأرسل لأخيه ينصحه ، ألا يتدخل بين المغول وأمير المدينة الخضراء ، فاستمع الشيخ للنصيحة وأطلق سراح أسيره .

واصل تيمور السير حتى اقترب من سمرقند ، وأخفى زوجته فى قرية قريبة منها عند أحد أصدقائه ، ثم تسلل إلى المدينة ليتعرف أحوالها ، ومكث بها خمسين يوماً يتردد خفية على بيوت التتر ، ويستحثهم على القيام بثورة لطرد المغول ، ولكنهم آثروا الانتظار لأن أعداءهم كانوا إذ ذاك فى منعة من القوة والنفوذ . فعاد إلى زوجته ، وأعد عدته للرحيل إلى الجنوب فى اتجاه مدينة كابل ليلتقى بالأمير حسين . وقد تبعه جمع كبير من التتر الذين يعشقون الحرية ويحبون الكفاح .

وقطع تيمور مع جيشه الصغير خمسمائة ميل ، فى جو عاصف وبرد قارس ، حتى اجتاز « كابل » فوجد الأمير حسيناً بانتظاره ، ومعه جيش من أنصاره .

تيمور الأعرج

فى هذا الوقت ثار أهل سجستان على أميرهم فأرسل يستنجد تيمور والأمير حسين ، فساعداه على إخماد الثورة . ولكن الأمير حسيناً اعتدى على بعض المدن والقرى ، وسلب أموالها وولى عليها حكاماً من رجاله ، فضج الأهالى بالشكوى ، وانضموا إلى أميرهم ، وطلبوا منه أن يتعاون معهم على طرد التتر من بلادهم ، فلبى دعوتهم وقامت حرب بين الفريقين هزم فيها أهل سجستان ، وأصبحت بلادهم خاضعة لتيمور والأمير حسين .

وحدث فى إحدى المعارك أن أصيب تيمور بسهم فى يده وآخر فى قدمه اليمنى ، واضطر أن يلازم الفراش مدة من الزمن . وقد اندمل الجرحان ولكن قدمه لم تستعد حركتها العادية ، فكان يعرج بها طول حياته ، ولذلك سماه أعداؤه تيمور الأعرج .

وكان الأمير حسين قد رحل إلى الشمال مع الجانب الأكبر من الجيش والأتباع الجدد ، وخشى تيمور أن يندفع الأمير بتهوره فى مجازفات تجرهما إلى الهلاك ، فصمم على أن يلحق به

مع البقية الباقية من الجيش. وودع زوجته فكاد قلبها يذوب حزناً، ولكنها تجلدت بالصبر وأخفت نفثات صدرها المكلوم ، وقامت بنفسها فألبسته درعه ، وقلدته سيفه ورافقته حتى امتطى جواده ، وظلت ترمقه بنظرها إلى أن طواه الأفق . وعادت وهى تقول : اللهم احفظ زوجى.

وصدق ما توقعه تيمور ، فإن الأمير حسيناً هاجم المغول فهزموه وبددوا جيشه واضطر أن يعود إلى جبال كابل ليجمع جيشاً آخر.

ووصل تيمور إلى نهر الآمو ، وأرسل بعض الكشافة ليتعرفوا أحوال البلاد ، فعادوا قائلين إن بيكيجوك يسير فى جيش عدته عشرون ألفاً ، ينشر الرعب بين الأهالى ويسلب أموالهم . وحزن تيمور لما يقاسيه التتر من ظلم وعبودية ، وعقد النية على أن يخاطر فى محاربة المغول بالرغم من أن أتباعه لم يزيدوا على أربعة آلاف رجل .

وعلم بيكيجوك بقدوم تيمور ، فأقبل مسرعاً من الشمال نحو النهر ليمنع تيمور من عبوره ووزع جيشه على ضفته . وأدرك تيمور أنه لا يستطيع اجتياز النهر فى مواجهة هذه القوة ، فتحرك إلى أعالى النهر حتى وصل إلى مخاضة صغيرة . وانتظر هناك بضعة أيام ، فخيل إلى بيكيجوك أنه سيقبع فى مكانه مدافعاً لا مهاجماً .

وفى ليلة ظلماء ، تسلل تيمور خفية عبر النهر مع الجانب الأكبر من جيشه فى جماعات صغيرة ، الواحدة تلو الأخرى ، وأمرهم أن يسيروا خلسة إلى مواقع معينة فى التلال الممتدة وراء جيش المغول . وترك خمسمائة رجل عند المخاضة ليحولوا دون اجتياز الأعداء لها . وقبل أن ينبثق الفجر استيقظ بيكيجوك منزعجاً على أثر ضجة وصياح ، وسأل عن الخبر فقيل له إن نيراناً شديدة تشتعل وراء الجيش من كل جانب ، فأيقن أن تيمور اجتاز النهر برجاله ، وكان واثقاً أن التتر سينضمون إليه ، فلم يفكر فى المقاومة وآثر الرحيل مع جيشه ، ولكن تيمور تعقبه وأسره بعد أن أوقع بجيشه هزيمة منكرة .

وكان الأمير إلياس فى هذا الوقت منهمكاً بالصيد فى السهول الشمالية وسمع بموت أبيه فبادر بالرحيل إلى العاصمة « ألمالك » ليتولى عرش المغول .

واتجه تيمور بفريق من الجند إلى المدينة الخضراء ، وسمع حاكمها المغولى بذلك ففر منها مع حاميتها .

وبهذا أصبحت البلاد الواقعة بين نهرى الآمو والسير « جيجون وسيجون » خالية من العدو خالصة لأهلها التتر . وكانت هذه البلاد تسمى من قبل « ما وراء النهر » .

وعاد الأمير حسين من الجنوب بجموع جديدة من أتباعه ،

وعزز بها جيش التتر .

وجمع تيمور زعماء التتر ووفق بينهم وأزال الخلافات التى كانت سبباً فى تنازعهم ، ووزع عليهم معظم الأسلاب التى أخذها من المغول ، ودفع تعويضات عن الموتى من الجند .

ثم أعد وليمة لبيكيجوك والضباط الذين أسروا معه وشكرهم على إخلاصهم لأميرهم إلياس ، ثم سألهم ما تظنون أنى فاعل بكم . قالوا أنت حر فيما تفعل ! إن قتلتنا أغضبت قومنا ، وإن أطلقت سراحنا أحبوك ، قال اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وغضب الأمير حسين من تيمور لما يظهره من لين مع ضباط المغول ، وعد ذلك منه ضعفاً ، وكان يريد أن يقتلهم جميعاً . فقال تيمور : لقد أسرتهم بنفسى ، ومن حق أن أقرر مصيرهم . وكان هذا مبدأ نزاع بين الاثنين .

خلاف وفراق

لما استتب الأمر للأمير إلياس فى بلاده وأصبح خاناً أعظم على المغول عاد بجيش كبير كله من الفرسان الأشداء المدربين على الحروب . وذهب تيمور لملاقاته وقد وضع نفسه قائداً لميسرة الجيش ، وعهد بالميمنة للأمير حسين ، والتقى المغول والتتر فى يوم عابس ، ثارت فيه عناصر الطبيعة وقامت زوبعة هوجاء ، خطف فيها البرق وقصف الرعد . وهطل المطر غزيراً فجعل ميدان القتال لجة من الطين ، خاضت فيها الخيل بمشقة . والتحم الجيشان فى عراك مرير ، وتمكن تيمور من أن يرد ميمنة المغول ، وأخذوا ينسحبون أمامه ، فترك رجاله يتعقبونهم وسار بالاحتياطى من جنده ليتفقد باقى الميدان ، فوجد الأمير حسيناً مهزوماً ، وقد انسحب ليعيد تنظيم جنده ، فهجم تيمور على ميسرة العدو ، واستطاع أن يردها ، وأرسل إلى الأمير حسين يستحثه على التعجيل بنجدته ، فغضب ولطم الرسول على وجهه قائلا « أيجسر تيمور أن يصدر إلىّ أمراً أمام رجالى». وعاد تيمور فأرسل إليه اثنين من أقاربه قائلين إن العدو بدأ يتقهقر وينبغى انتهاز هذه الفرصة لمواصلة القتال بأكبر عدد

من الجند قبل أن ينظم العدو صفوفه ويعود للهجوم . ولكنه توانى مدعياً أن جمع شتات جيشه والهجوم به يحتاجان لفترة من الزمن ، ورأى العدو أن الأمير حسيناً محجم عن القتال ، فاشتدت عزيمته وكر راجعاً ، وشن هجوماً عنيفاً على طول جبهة القتال ، وعجز تيمور عن أن يصده أو يقف له ، فآثر الانسحاب وجمع شتات رجاله من قبائل البرلاس وعاد إلى بلده حزيناً مغلوباً على أمره . وكانت بانتظاره فاجعة أليمة . فإن زوجته التى كان يرجو بقربها العزاء والتسلية واحتمال الصبر على المكاره أصيبت بمرض عضال لم يثمر فيه علاج ، ولم يشفع له طبيب فماتت على الأثر .

ولزم تيمور الصمت والعزلة عن الناس ، وكان يقضى وقته فى الصلاة وتلاوة القرآن ، ويتسلى بمفرده بلعبة الشطرنج ، حاملا على صدره ابنه الذى لم يتجاوز الخامسة من عمره . وقد صنع رقعة للشطرنج بها ضعف المربعات ، وعليها ضعف عدد القطع ، وأخذ يلهو بحل المشكلات التى تنشأ من بعض مواقفها.

وندم الأمير حسين على ما أظهره من كبرياء وعنت ، وأرسل إلى تيمور يطلب منه أن يرافقه فى الرحيل إلى الهند فراراً من المغول ، فأجابه تيمور : إن الصلة الرحيمة التى كانت تربطهما ضمها القبر ، فليذهب حيث يشاء ، أما هو فسيبقى بقربها .

وسار المغول نحو سمرقند لامتلاكها ، فوجدوا أبوابها موصدة أمامهم ، وأهلها مستعدين للدفاع عنها ، وفى مقدمتهم العلماء ورجال الدين الذين بثوا فيهم الحماسة وأثاروا فيهم الرغبة الصادقة فى طرد الغاصب .

وحاول الأعداء أن يدخلوا المدينة عنوة مرة بعد أخرى ، ولكنهم ردوا عنها خاسرين . ويشاء القدر أن تصاب خيلهم بطاعون فتاك أودى بها عاجلا ، ولم يبق منها إلا عدد ضئيل ، وأصبح جيشهم كله من المشاة وعاجزاً عن مقاومة الخيالة من التتر ، فرضوا بالهزيمة ورحلوا عن البلاد . وأحجم أهل سمرقند عن مطاردتهم خشية أن تصاب خيولهم بالوباء .

انقسام التتر

علم الأمير حسين بفرار المغول فجاء بجيشه إلى سمرقند وأقام نفسه حاكماً عليها . وأقر تيمور هذا الوضع حسما للنزاع ، ولأنه يعلم أن كزجان حاكم سمرقند المتوفى هو جد الأمير حسين ، فمن حق حفيده أن يرث الحكم عنه . ولكن تيمور أصر على أن يستولى على بلدته مع أراضيها الخصبة ، فرضى الأمير بذلك ، على أن تفرض ضريبة على كل فرد من قبائل البرلاس ، فدفعها تيمور عنهم ، واضطر أن يضحى فى سبيل جمعها بجواهر زوجته . وعرف الأمير أنها كانت ملكاً لأخته ، ولكنه لم يتورع عن تسلمها .

وباحتلال سمرقند أصبح الأمير حسين حاكماً على البلاد الواقعة بين الهند وبحر آرال (الذى يسمى الآن بحيرة خوارزم) ، فعين حكامها وأمدهم بالجند والضباط للدفاع عنها . وسلك فى حكمه طريق العنف والقسوة ، واغتصب أموال الناس بالضرائب الفادحة ، فأغضب بعض الأمراء والزعماء الذين شقوا عليه عصا الطاعة . وانقسم التتر إلى فريقين أحدهما يناصره والآخر

يعاديه ، وقامت بين الفريقين حرب شعواء ظلت مستعرة ست سنوات . وكان تيمور فيها أقوى خصم للأمير حسين . استطاع أن يقتطع منه بلداً بعد آخر ، بسعة حيلته واستبساله فى القتال واستهتاره بالموت وحسن قيادته لأنصاره ، حتى أصبح فى أعين التتر بطلا لا يجارى ، وقائداً لا يغلب . وذاع ذكره فى البلاد وتناقلته القوافل فى أحاديث السمر .

وكان استيلاؤه على مدينة كارشى باكورة أعماله المجيدة ، وهى واقعة جنوبى سمرقند وغربى المدينة الخضراء . وتمتاز بحصن منيع ، ويحيط بها سور عال وخندق مملوء بالماء . ويتولى الدفاع عنها رجل من أنصار الأمير حسين يسمى الأمير موسى ، ومعه ثلاثة آلاف جندى .

ضرب تيمور خيامه على مقربة من كارشى ، واستدعى أتباعه الذين لم يبلغوا إذ ذاك سوى مائتين وأربعين رجلا ، وأخبرهم أنه يريد الاستيلاء على المدينة ، فبهتوا وتوهموا أنه يداعبهم على غير عهدهم به ، ولكنهم أحسوا أنه جاد لا هازل ، فقالوا : ليس من الحكمة أن نجازف بأرواحنا أمام هذا الحصن وحراسه الذين يزيدون على عشرة أمثالنا ، وهنا نساؤنا فى الخيام ، إذا أصابنا مكروه وقعن فى الأسر ولحقنا العار إلى الأبد . فأولى بنا أن ننتظر إلى أن تتضاعف قوتنا بأنصار جدد ،

فنضمن الفوز فى القتال . وأن موقفنا هذا لا تجدى فيه العجلة ولا يثمر الاندفاع ، وخير وسيلة لنا هى الصبر مع الحذر .

ولم يشأ تيمور أن يجادلهم بعد استماعه لأقوالهم ، واكتفى بأن أشار إلى الخيام قائلا : اذهبوا إلى حريمكم والزموا جانبهن ، أما أنا فسأقصد هذه المدينة . ثم تركهم غاضباً وذهب إلى سرادقه .

وجلس الرجال يتشاورون فى الأمر وكان بينهم الأمير « داود » المولع بالمجازفات والمخاطر والأمير « جاكو » الذى لزم جانب تيمور فى موقعة النهر حيث هزم القائد بيكيجوك . ولقد كان لهذين الجنديين الباسلين أثر كبير فى إقناع الرجال بتنفيذ أمر تيمور ، قائلين : إنه إذا اعتزم أمراً فلا سبيل إلى إقناعه بالعدول عنه . وسيستولى على المدينة لا محالة بأعوان آخرين ، فلا يصيبنا إلا الخرى بالتنحى عن القتال . وتيمور لا يلقى برجاله إلى التهلكة ، وله من الحيل المبتكرة ما يضمن الفوز فى كل ما يقدم عليه . وارتاح الرجال لهذه الآراء ، وثارت حميتهم ، فأقسموا على أن يتبعوا تيمور ويعملوا بمشيئته . وسار إليه الأمير « جاكو » حاملا المصحف فى إحدى يديه وسيفاً فى اليد الأخرى ، وقال له : لقد أقسمنا على القرآن أن نطيعك ونأتمر بأمرك ، وهذا سيف نقدمه لك لتقطع به عنق

من يخالفك . واطمأن تيمور وزال غضبه ، وسأل جاكو قائلا ما تظن أنى فاعل غداً . قال تقودنا ليلا فندخل المدينة قسراً ، ونهجم على الأمير موسى فى سريره ونقتله . فأجابه تيمور ونبحث بعد ذلك عن ثلاث آلاف سرير آخر ونقتل من فيها . إن هذه الخطة لا تجدى نفعاً .

الحرب خدعة

كان الصيف قد أقبل واشتدت وطأة الحر فى هذه البقاع من أواسط آسيا . وسئم الأمير موسى الإقامة داخل الحصن ، لأنه اعتاد أن يقضى شهور الصيف فى مرج له على نهر الآمو ، حيث ينصب خيامه ويقضى ليله ونهاره فى مجالس الأنس التى تراق فيها الخمر بغير حساب ، بين نغمات الموسيقى ورقص الجوارى الحسان . ولكن أنى له ذلك وتيمور عن كثب منه يترقب الفرصة لينقض على المدينة . فلينتظر إلى أن ييأس عدوه وينصرف عن قصده .

وفجأة أمر تيمور رجاله بالرحيل إلى الجنوب فى طريق القوافل إلى هراة . ولما وصل إلى بئر تسمى بئر إسحق ، توقف

عن السير وضرب خيامه . وأرسل رسولا إلى أمير هراة يحمل إليه هدية عظيمة ، ويستأذنه فى الرحيل إلى مدينته . ثم أمر جنوده أن يحتجزوا جميع القوافل المتجهة شمالا نحو كارشى . ومضى شهر إلى أن عاد الرسول من هراة حاملا هدية من أميرها ، ورسالة يرحب فيها بتيمور ورجاله ، وعند ذلك أمر تيمور بفك أسر القوافل لتتخذ سبيلها نحو كارشى . ورحل بجنوده إلى الجنوب.

ووصلت القوافل بعد بضعة أيام إلى كارشى ، وكان طبيعيًّا أن يستوقفها الأمير موسى ، ويسأل أصحابها عن أخبار تيمور ، فحدثوه بما سمعوا ورأوا وأكدوا له أنه ذهب إلى هراة .

اطمأن الأمير موسى على سلامة المدينة ، وخرج منها مع جيشه تاركاً فى الحصن بضع مئات من الجنود . وسار إلى مصيفه على النهر ليقضى فيه الفترة الباقية من الصيف .

لم يواصل تيمور سيره إلى هراة ، ولكنه توقف بعد مسيرة يوم واحد ، وانتظر أسبوعاً كاملا ، ثم عاد أدراجه إلى الشمال بأقصى سرعة تحتملها الخيل ، ووصل إلى نهر الآمو ، فخاضه بفرسه وتبعه رجاله ، ثم أمر فريقاً منهم أن ينتشروا فى الطرق المؤدية إلى كارشى ، ويحجزوا كل مسافر إليها . وسار مع بقية جيشه الصغير ، إلى أن بدت له فى الأفق مدينة كارشى ، فتوقف عند دغل صغير واختبأ فيه . ولما انتصف الليل خرج

مفرده قاصداً المدينة ، وأراد رجاله أن يتبعوه فمنعهم ، وأمرهم ن ينتظروا عودته ، وسار فى حذر إلى أن اقترب من الخندق ، ألقى نظرة على الأسوار فلم يجد أحداً يحرسها ، فاجتاز الخندق لى قدمه فى موضع قليل الغور ، ووصل إلى الضفة الأخرى ، أخذ يتفقد السور متنقلا من مكان إلى آخر ، حتى عثر على طاع فيه تهدم من أعلاه ، وأصبح تسلقه ميسوراً ، وكان هذا ا يبتغيه ، فكر راجعاً إلى رجاله وأمرهم أن يسيروا خلفه ، اجتازوا الخندق وتسلقوا السور فى القطاع المتهدم ، وهبطوا لى المدينة شاهرين سيوفهم ، وقتلوا من تصدى لهم من الجند الأهالى ، واتجهوا إلى الحصن فاحتلوه بعد مقاومة هزيلة ، ن الحراس الذين لم يأووا إلى مضاجعهم . وفى الصباح سمع لأهالى صوت بوق يرتفع من أحد أبراج الحصن ، وتساءلوا ن السبب ، فعلموا أن تيمور قد احتل مدينتهم وهم نيام .

استيقظ ضباط الأمير موسى من سباتهم ، وهالهم ما سمعوا ، فكروا فى المقاومة ، ولكنهم لم يعرفوا مبلغ قوة تيمور وعدد نوده داخل المدينة وخارجها ، فرضوا بالهزيمة ، وساروا إلى يمور مظهرين له خضوعهم ، فشكرهم على ذلك ، ونصحهم لانضمام إليه فقبلوا ، وأقسموا له يمين الطاعة . وشذ عنهم ن الأمير موسى ، وتحصن فى منزله ، فأمر تيمور أن

تشعل النار فى المنزل ، ولما رأى الشاب أن الخطر محدق به خرج حاملا سيفه فوق عنقه وسلم نفسه لتيمور ، فاحتفى به وهنأه بشجاعته واستبقاه فى المدينة .

وكان طبيعياً بعد الاستيلاء على كارشى أن تزداد شهرة تيمور وترتفع منزلته فى نفوس التتر ، ورأى الزعماء الناقمون على حكم الأمير حسين أن تيمور خير من يقودهم ، فانضموا إليه جميعاً ، وأمدوه بالمال والرجال والذخيرة ، فاشتد ساعده ، واشتعلت جذوة نشاطه ، وقاد جيشه من نصر إلى نصر ، وغزا البلاد الكبرى وهدم حصونها واحتلها وطرد حكامها ، وأقام عليها حكاماً من قبله . وحاول الأمير حسين أن يقاومه فلم يفلح ، وأخيراً دارت عليه الدائرة ، وتوالت عليه الهزائم ، ففر إلى بلخ فى الجنوب وتحصن فيها ، ولكن تيمور اقتفى أثره وبدد شمل جيشه . واضطر الأمير أن يستخفى فى ثياب رثة ، ويلجأ إلى مسجد ويأوى إلى مئذنته وعندما صعد المؤذن فى الفجر ليدعو الناس إلى الصلاة ، وجد تحت قدميه جثة هامدة . والمرجح أن بعض أعوان تيمور كشفوا سر الأمير وتعقبوه إلى مخبئه وقتلوه .

تيمور أمير التتر

أصبح لزاماً على التتر أن يختاروا أميراً ليتولى الحكم ، فاجتمع زعماؤهم وشيوخهم فى بلخ ، ووفد إليها أئمة الدين وكبار الضباط ، وعقد الجميع مجلساً للتشاور فى الأمر . وكانت النية متجهة إلى العمل بالميثاق القديم الذى اتفق عليه المغول والتتر فى عهد جنجيزخان . واقترح أحدهم أن يسلكوا الخطة التى اتبعها الأمير حسين من قبل ، وهى أن يختاروا أميراً من أحفاد جنجيزخان تكون له السلطة الاسمية ، أما الحكم الفعلى فيتولاه أحد زعماء التتر . وهنا ثار رجال الدين ، وكان بينهم شيخ تقى وقور ذو نفوذ دينى عظيم بين جميع طبقات الشعب ، اسمه « أبو البركات » . قال إن جنجيزخان كان فى مبدأ حياته قاطع طريق ، واستطاع أن يغزو البلاد الإسلامية ويخضعها لحكمه بحد السيف . ويأبى علينا ديننا أن نرتبط بعهد فرضه غاصب ظالم . فقال بعض الزعماء : إذن فليتولَّ كل منا الحكم فى بلده وقبيلته ، ونتعاون جميعاً لدفع أى خطر يصيب

أحدنا . فرد عليه الشيخ قائلا : إن هذا الحكم الإقطاعى يؤدى إلى تفكك الروابط بين التتر والتفرقة بينهم . وما زلنا نذكر ما حدث عندما أقبل طغلك خان بجيشه ، فقد تسابقتم إلى السير فى ركابه ، وتنافستم فى إظهار الولاء له . وتحمس رجال الجيش فقالوا إن سلامة البلاد فى وحدتها وتضامنها وتولية أمير عليها من أهلها يقيم الحكم فيها ، ويدير شئونها ويصون الأمن فيها ، ويدافع عنها ضد من يطمع فى اغتصابها أو اقتطاع أى جزء منها . ورجحت هذه الفكرة بعد نقاش طويل .

ولم يشأ تيمور أن يحضر هذا الاجتماع فتركهم يقررون مصير البلاد بحرية وبغير تأثير من جانبه .

وانتقل بحث المجتمعين إلى انتخاب الشخص الذى يتولى هذا المركز الخطير ، فلم يجدوا أصلح من تيمور ، فاتفقوا على توليته . وقاموا بجمعهم قاصدين السرادق الذى يقيم فيه ، وحيوه بتحية الملوك وعاهدوه على الولاء والإخلاص . ومر « زين الدين » على كل منهم بالمصحف الشريف فأقسم عليه ألا يدين بالطاعة لأحد سوى تيمور . وكان هذا سنة ٧٧١ هـ - ١٣٦٩م عندما بلغ تيمور الثالثة والثلاثين من عمره .

وقد شكرهم على حسن ظنهم به ، وعلى الثقة التى أولوه إياها . ومنح كلا منهم هدية ثمينة ، ثم عين منهم حكام البلاد

ومستشاريه وكبار القواد ورجال ديوانه . وكان حريصاً على أن يرضى جميع القبائل بتعيين زعمائها وشيوخها فى مراكز رفيعة خطيرة .

واتبع سياسة الحزم مع العطف على رعيته ، يعاقب المسىء ويكافئ المحسن ، ولم يجعل لأحد من المقربين منه نفوذاً عليه ، يستشيرهم فى أمره ويعمل بما توحى به إليه نفسه ، ودرب جنده على النظام والطاعة العمياء ، وكان خبيراً بعادات قومه وأهوائهم ، فاستطاع أن يسوسهم ويسلس قيادهم .

وكان سريعاً فى القضاء على أية حركة تهدد أمن البلاد . عرف أن بعض أعوان الأمير حسين تحصنوا فى بلادهم وأخذوا يستعدون لمناوأته ، فسار إليهم وهزمهم وأمر بقتلهم ثم هدم حصونهم وحرق بيوتهم .

وسمع أن قبيلة من المغول أغارت على الحدود الشمالية وعادت بعد أن سلبت أموال الأهالى ، فأمر ضابطين أن يسيرا مع شرذمة من الجند لتأديبها واستعادة الأسلاب منها ، فبادرا بتنفيذ أمره وواصلا السير حتى وصلا إلى مضارب القبيلة فوجداها خالية من سكانها فعادا أدراجهما . وفى منتصف الطريق رأيا ضابطاً مقبلا من الجنوب ومعه فريق من الجند فسألاه عن وجهته ، فقال : أرسلنى الأمير تيمور لأبحث عن القبيلة التى ضللتكما . فارتبكا فى أمرهما وخجلا ورافقاه .

وتتبعوا جميعاً أثر القبيلة حتى عثروا عليها ، واقتصوا منها ، وعادوا بالأموال التى اختلستها. وقد شكرهم تيمور جميعاً وكافأهم ، ولم ينطق بكلمة تمس كرامة الضابطين. وكان هذا درساً قاسياً لهما ولغيرهما.

وحدث مرة أن فر ضابط من الميدان فى إحدى المعارك ، فجرده تيمور من سلاحه وربطه على ظهر حمار مولياً وجهه نحو الذيل ، وسيره على هذا النحو فى شوارع سمرقند يستمع إلى ضحك الجمهور وسخريته .

لقد كان تيمور يمقت الجبان ويزدريه ، ويحب الشجاع الجرىء . وأدرك الجيش ذلك فتنافس ضباطه وجنده فى إرضاء هذه النزعة فيه وخاضوا معه المعارك ببسالة لا حد لها . ونحا نحوهم القواد والضباط الذين لا ينحدرون من أصل تترى .

سمع تيمور أن جموعاً من المغول تخطت الحدود ، فأمر فصيلة من الجند بطردهم ، ووضعها تحت قيادة رجلين عرفا بالجرأة وحدة الطبع . أحدهما عربى الأصل يسمى « على بهاتور » والثانى صينى ويدعى « خيتاى بهاتور » . فجدا فى السير بضعة أيام حتى وصلا إلى ضفة نهر ، فوجدا المغول على الضفة الأخرى ، وجلسا يتشاوران فيما يصنعان . وكان من رأى خيتاى أن يلزما الحذر وألا يشتبكا مع العدو قبل أن يصلا إلى الضفة الأخرى بحيلة يدبرانها . فابتسم على قائلا : أهكذا

يحاربون فى الصين ؟ فغلى الدم فى عروق خيتاى واستل سيفه
وامتطى فرساً غير مسرجة؟ واندفع بها نحو النهر ، واجتازه وهجم على
الأعداء وحده وقتل أول رجلين تصديا له ، فتكاثروا عليه واشتبكوا
معه فى صراع عنيف. وفزع رفيقه على وهلع قلبه عليه ، فتبعه بسرعة
البرق ولزم جانبه يرد الطعنات عنه ، حتى أقبلت جنودهما فى أثرهما ،
فدفعوا الأعداء عنهما وقاتلوهم إلى أن هوت صفوفهم ولاذوا بالفرار .

وحدث مرة أن اشتبكت فصيلة من التتر مع جيش
التركمان المنتشرين على الحدود الغربية لبلاد الفرس ، وكاد التتر
ينهزمون ، لولا أن قام ضابط مغولى يسمى « مَنْجلى بوجا » وبحث
فى الميدان حتى عثر على جثة لها رأس أصلع ولحية سوداء
طويلة ، فقطع الرأس وحمله على طرف رمحه وجال بفرسه فى ساحة
القتال أمام صفوف الأعداء ، وهو يصيح قائلا : هذا أميركم
« قَرَه يوسف » قد قتل. وانخدع التركمان بهذه الحيلة ، ففترت
همتهم وتخاذلوا وبدأوا يتراجعون. وقويت عزيمة التتر فشنوا هجوماً
عنيفاً على أعدائهم وتوغلوا فى صفوفهم واضطروهم إلى الفرار ، وعلى
رأسهم أميرهم «قره يوسف» الذى كاد يتميز غيظاً من بلاهة رجاله.

لقد نجح تيمور فى أن يبث فى رجاله روح الجرأة
والإقدام والتضحية بالنفس العزيزة . فلا عجب أن يصبح
جيشه قوياً مهيباً وأن يخشاه الملوك والأمراء ، ويتقربوا إليه

بالهدايا النفيسة . وقد وفد عليه أمراء من القبائل غير التترية ومعهم أتباعهم ورجالهم المحاربون، فضمهم إلى جيشه. وكان من بينهم الأمير بايان ابن القائد بيكيجوك الذى عفا عنه تيمور وأطلق سراحه.

احتلال خوارزم

فكر تيمور فى أن يزوج ابنه « جاهنجير » ، فاختار له فتاة جميلة تسمى « خان زاده » بنت أمير خوارزم « حسين الصوفى » وأرسل إليه رسولا من رجال الدين يخطبها منه ، فأساء الظن وتوهم أن تيمور يعامله كما لو كان أحد الولاة التابعين له ، فرد على الرسول رداً خشناً وأمر بسجنه .

وثارت ثائرة تيمور ، فجهز جيشاً واتجه به غرباً مخترقاً الصحراء التى سبق أن ضل فيها مع زوجته وابنه . حتى وصل إلى مدينة خيوه . وكانت ذات أسوار عالية ، ويحيط بها خندق عريض ، فملأه الجند بالرمال والأخشاب واجتازوه ، وتسلقوا الأسوار على سلالم أسندوها عليها . وكان أول من تسلقها « على بهاتور » العربى . وما كان هذا ليرضى منافسه « خيتاى » الصينى الذى أسرع وراء على وجذبه من قدمه ، فسقط فى الخندق ، وصعد هو السلم ، وكان أول من اشتبك مع الأعداء على حافة السور ، وتبعه باقى الجند ، وقتلوا الحراس ونزلوا إلى المدينة ، ودارت معركة حامية فى شوارعها قدر فيها النصر لتيمور ، وفر الأمير حسين الصوفى إلى مدينة جرجانية على نهر

الآمو وتحصن فيها . وتعقبه تيمور إليها ، ولما وصل إلى أسوارها جاءه رسول من قبل الأمير قائلا له : لماذا نلقى برجالنا إلى التهلكة ؟ فلنحسم النزاع بيننا بمبارزة ثنائية ، لا يشترك فيها أحد سوانا ، ولتكن الغلبة لمن ينتصر . فلم يتردد تيمور فى قبول هذا التحدى وحدد مكان المبارزة وميعادها .

وفى الميعاد المضروب لبس تيمور درعه وخوذته الذهبية وتقلد سيفه وقبض على ترسه ثم امتطى جواده . ولما رآه القواد والأمراء هلعت أفئدتهم ، وأقبلوا عليه يحاولون إقناعه بالعدول عن عزمه ، وتقدم الشبان منهم يريدون أن يحلوا محله ، ومن بينهم الأمير بايان ، لكنه رفض بإباء . وجاء سيف الدين وهو أكبر الأمراء سناً ، فأمسك بعنان الفرس راكعاً على قدميه ، وتوسل إلى تيمور بدموع حارة ألا يجازف بنفسه ، فغضب تيمور واستل سيفه وضربه بقبضته على يده قائلا : أتريد منى أن أكون جباناً ؟ ثم وكز جواده فأخذ ينهب به الأرض ، حتى وصل إلى المكان المعين . وكان على مقربة من أسوار المدينة . ونادى حراسها قائلا : بلغوا أميركم أنى بانتظاره . ووقف تيمور كالطود الراسخ ، معرضاً لسهام الحراس وحرابهم التى قد يطلقونها عليه فى ثورة من الغضب . وطال انتظاره دون أن يخرج إليه خصمه ، فعاد أدراجه غاضباً ، واستقبله رجاله

مظاهر الفرح والحب العميق والإعجاب بشهامته .

وأصيب أمير خوارزم بمرض فجائى قضى عليه ، وفتحت المدينة أبوابها لتيمور فاحتلها . وبهذا أصبحت خوارزم تابعة له ، فعين ابنه « جاهنجير » حاكماً عليها وزوجه الأميرة خان زاده .

وأقيم لهذا الزواج فى سمرقند حفل رائع لم يشهد الأهالى مثيلا له من قبل . وأقبلت العروس من جرجانية محمولة على هودج تحف به كواكب من الفرسان ، ويتبعها جماعة من الإبل حاملة هدايا العروس لزوجها . وسار الموكب فى طرقات مكسوة بالسجاجيد النفيسة ، وقد أقيمت الزينات على البيوت والمساجد والحوانيت ، واصطف الأهالى على جوانب الطريق يستقبلوا أميرتهم ويرحبوا بها . ووصلت العروس إلى سرادق عظيم أقيم لحفلة الزواج ، وأنفقت فيه ثروة طائلة . فالستائر من الحرير الموشى بالذهب ، والسقف قبة زرقاء سماوية زينت بالجواهر الكبيرة المتلألئة كالنجوم ، والمقصورات مملوءة بالهدايا الثمينة التى قدمها تيمور للعروس . وأعد سرادق آخر للمدعوين من جرجانية وسمرقند وبخارى وغيرها . ومدت فيه الموائد الحاوية لأشهى ألوان الطعام وأنواع الشراب . وأقبل الجوارى الفاتنات يسلين الضيوف بالرقص والغناء والموسيقى . وبينهن الفارسيات

والتركيات والصينيات اللائى كن سبايا حرب ، أو اشترين من أسواق الرقيق بأثمان باهظة ، لفرط جمالهن وتناسق أجسامهن . وفى وسط هذه الجموع الحاشدة مر تيمور ينثر الذهب والفضة واللؤلؤ بسخاء لا نظير له . ومن طريف ما حدث أن همس أحد الضيوف فى أذن جاره قائلا : « انظر إلى تيمور إنه يبتسم » فدهش الرجل وتفرس فى وجه تيمور ثم قال لرفيقه : « لقد لعبت الخمر برأسك وفقدت صوابك وتخيلت المستحيل » حقاً لم يبتسم تيمور بالرغم من مظاهر الفرح والبشر التى ملأت قلوب الحاضرين . . أتلك كانت عادته التى التزمها طول حياته أم أنه أحس فى سريرته أن « خان زاده » ستكدر صفو بيته فى حياته و بعد مماته .

امتد ملك تيمور غرباً إلى بحر قزوين (أو الخزر) وشمالا إلى بحر آرال (أو بحيرة خوارزم) ، وتطلع إلى الجنوب وراء نهر الآمو ، فوجد مدينة هراة ذات الأرض الخصبة ، والتجارة الواسعة ، والغنى الوفير ، فطمع فى أن يضمها إلى ملكه . وكان أميرها « غياث الدين » هو ابن الأمير مالك الذى وقع من قبل أسيراً لكزجان ثم أطلق سراحه . ويذكر المؤرخون أنها كانت تضم مائتين وخمسين ألف نسمة ، وعشرة آلاف حانوت ، وبضع مئات من دور العلم ، وثلاثة آلاف حمام .

وفى ذلك العهد لم يكن بلندن أو باريس أكثر من ستين ألف نسمة وقليل من المدارس . أما الحمامات الساخنة فلم يكن لها وجود بهما .

وانتحل تيمور عذراً لإثارة النزاع مع غياث الدين فعينه عضواً فى مجلس الأمراء الذى اعتاد أن يعقده سنوياً ، ودعاه للحضور ، فماطل أولا ثم رفض ، وأخذ فى تحصين بلده وتهيئة الدفاع عنها . وكان هذا فى نظر تيمور سبباً قوياً لإعلان الحرب . فجهز جيشاً قوامه خمسون ألف رجل ، وجدَّ فى السير إلى أن اقترب من المدينة فاعترضه حصن منيع ، وقامت معركة حامية أظهر فيها تيمور بسالته المعهودة ، إذ اشترك فى القتال مع جنوده . دون أن يقى جسمه بدرع أو ترس ، وقد أصابه سهمان وجرحاه جرحين بليغين ، ولكنه لم يحفل بهما ، وواصل القتال ، واستطاع أن يدك أركان الحصن ويبيد حراسه . وأدرك غياث الدين أن المقاومة لا تجدى نفعاً ، فسار بنفسه إلى تيمور طالباً منه الصلح ، فاستقبله بحفاوة وسيره معززاً مكرماً إلى سمرقند ، ثم فرض ضريبة على الأهالى ، فدفعوها ، وعين حاكماً من قبله على المدينة ، وعاد بعد أن حمل معه كنوز ملوكها وأموالهم وعرشهم الذهبى .

عاصمة التتر

اتسعت أملاك تيمور بعد أن استولى على هراة ، وبلغ امتدادها من سمرقند خمسمائة ميل فى الجهات الأربع . فكان طبيعياً أن يتخذ هذه المدينة المتوسطة عاصمة له . وكانت غنية بأرضها التى تجود بأربعة محاصيل فى العام ، وحدائقها التى تنتج الأزهار والفاكهة ، وتجارتها الوثيقة الاتصال بالقوافل المارة بها حاملة صادرات الشرق إلى الغرب ، وصناعاتها التى امتازت بأجود أنواع الكاغد وأفضل الثياب الحريرية ذات اللون الأحمر التى أغرم بها أهل أوربا . وكان التتر يسمون هذه الثياب القِرمزى ، ومنها أخذت الكلمة الإفرنجية (Crimson) .

وكانت المدينة على ضفة نهر صغير تتفرع منه الجداول إلى الأرض الزراعية ، وتمتد منه أنابيب رصاصية إلى البيوت . واعتاد الأهالى أن يتروضوا على جانبيه فى المساء ، طلباً للراحة من عناء العمل ، ولاستنشاق الهواء الصافى العليل .

وبذل تيمور جهده فى تجميل عاصمته ، فهدم البيوت العتيقة وأقام مكانها مبانى جديدة متينة . وشيد المساجد والقصور ، وشق الشوارع والميادين ورصفها بالأحجار ، وغرس فيها

الأشجار والحدائق ، وبنى سوراً عالياً حولها يبلغ محيطه خمسة أميال ، وحصنه بالقلاع المنيعة .

ولم ينس مسقط رأسه « المدينة الخضراء » ، فجعل منها روضة فيحاء ، وبنى لوالده قبراً عظيماً ، وأقام فوقه قبة ذهبية . ورفع البيت المتواضع الذى بناه لزوجته « ألجاى » وشيد مكانه قصراً أنيقاً . وكان يتردد إليه فى الشتاء ليذكر أيام السعادة التى قضاها مع رفيقة صباه .

ومن غريب أمره أنه زهد فى ألقاب الشرف ، فلم يناد بنفسه ملكاً أو خاناً ، وكان هذا سهلا عليه يسيراً . وظل قانعاً بلقب الأمير طول حياته ، حتى بعد أن أصبح نصف العالم فى قبضة يده . ولكنه حرص على أن يكون حا كماً بأمره قوى الإرادة صلب المراس . وكان قومه يسمونه ذا اليد الحديدية ، إشارة إلى كلمة تيمور التى تعنى فى لغتهم الحديد .

وفكر تيمور فى الزواج ، فاختار « سراى مُلك خانوم » إحدى زوجات الأمير حسين ، وأحاطها بمظاهر العز وبهجة الملك . وشعر بحبها ووفائها له ، فاطمأنت نفسه إليها ، وأطلق لها حرية التصرف فى شئون قصره . وكان كثيراً ما يستشيرها فى أمره ، ويبوح لها بمكنون سره .

وكان جم النشاط دائم الحركة يتنقل من بلدة إلى أخرى

ليدير شئونها ويقوى وسائل الدفاع عنها .

رحل فى سنة ٧٧٧ هـ – ١٣٧٥ م إلى الشمال الشرقى ليتفقد أحوال المغول ، واستطاع أن يغتصب مدينتهم الخصبة « ألمالك » وأن يردهم وراء حدود بلاده ، ليأمن غاراتهم عليها ، وقد قطع فى هذه الرحلة خمسمائة ميل فى الذهاب ومثلها فى الإياب . ولما عاد إلى سمرقند خرج أهلها لاستقباله ، وقد لبسوا الحداد جميعاً .

وسار الأمير سيف الدين مع كوكبة من الفرسان بملابس سود معفرة بالتراب ، ولما اقترب من تيمور ترجل وهرول إليه وركع بجانبه ، ممسكاً بركاب فرسه ، وهو مطأطئ الرأس خاشع البصر . فقال له تيمور : « أنخشى شيئاً ؟ تكلم » : قال : إن فى النفس حسرة ، والقلب مكلوم » قال ولم : قال : إن القدر قد اختطف ابنك « جاهنجير » وهو فى ميعة الصبا ، على أثر مرض لم يمهله ، كزهرة يانعة اقتلعتها ريح عاتية من غصنها . فقطب تيمور جبينه وعض شفته وقال لسيف الدين : قم وواصل السير . ودخل المدينة الركب فى سكون ووجوم . وقصد تيمور قصره واستدعى خان زاده أرملة ابنه ، وواساها وحمل مولودها الصغير بين أحضانه ، وهمس فى أذنه قائلا : « لقد كان أبوك أعز إلىّ من نفسى » .

واعتكف تيمور مبتعداً عن الناس ردحاً من الزمن .

فتنة بين المغول

فى هذا الوقت كان المغول مسيطرين على سيبريا وأواسط آسيا حتى نهر الفولجا . وقد استولوا على بلاد القرم ، وأقاموا عليها حاكماً منهم وفرضوا جزية على الروسيا كانت تدفعها صاغرة . . وقد أعدوا من مدينتى سراى واستراخان على نهر الفولجا مركزين قويين لمراقبتها ، فكلما بدرت منها بادرة العصيان أو التراخى عن دفع الجزية أغاروا عليها بجموعهم الزاخرة ، وخربوا ديارها وفتكوا بأهلها ، وسلبوا أموالها ، وأعادوها قسراً إلى الطاعة .

وحدثت فتنة بين أمراء المغول ، واعتدى أمير يسمى « تكتميش » على ابن الخان فقتله ، وفر إلى سمرقند طامعاً فى حماية تيمور . وحضر فى أثره رسول من « أوروس خان » برسالة يطلب فيها من تيمور الأعرج أن يسلم تكتميش فى الحال ، وإلا عرّض نفسه لحرب شعواء لا قبل له بها . وكانت هذه أول مرة يواجه فيها تيمور بهذا الوصف . ولكنه كتم غيظه ورد على الرسول قائلا : لقد لجأ إلىّ « تكتميش » وسأبذل ما فى وسعى لحمايته ، وأنا على استعداد لملاقاة الخان .

وأكرم تيمور وفادة ضيفه ، ودعاه ابنه ، وأهدى إليه مدينتين محصنتين على الحدود الشمالية ، وزوده بالمال والجند والضباط والعتاد الحربي ليتمكن من الاحتفاظ بهما . وما كان لمثل « تكتميش » أن يقنع بموقف الدفاع فحسب ، فبدأ يشن الغارات على جيرانه المغول ، فردوا العدوان بمثله ، وهزموه وبددوا شمل رجاله ، واضطر أن يعود مهزوماً إلى سمرقند . فرحب به تيمور وجهزه ثانية بمال وفير ، وجيش زاخر ، فرحل به ليستعيد مدينتيه المفقودتين . وفى أثناء الطريق سمع بموت « أوروس خان » فعقد النية على أن يثب إلى الملك . أليس هو من أحفاد جنجيزخان وأقرب الأمراء إلى العرش وأولاهم به . وقد جازف باجتياز الحدود تاركاً للقدر أن ينصره أو يخذله ، وقد بسم له الحظ ، فما إن علم أنصاره بمقدمه ، حتى أقبلوا عليه من كل صوب وحدب ، فاستعان بهم وبجنود التتر على محاربة خصومه ومنافسيه ، وتمكن من أن يتغلب عليهم ويشق طريقه إلى العاصمة سراى على الفولجا ويستولى على العرش .

وخرجت الروسيا عن طاعته ، فجمع جيشاً قوياً ، وانطلق به إليها ، ودمر بلادها ، وفتك بأهلها وسلب أموالهم ، واحتل موسكو عاصمتها ، وعاد بعد أن أرغمها على الخضوع لسلطانه .

إساءة بعد إحسان

لم يقنع « تكتميش » بملكه الشاسع الذى شمل سيبريا والروسيا . لقد رأى سمرقند وبهرته كنوزها ، فسولت له نفسه أن يغتصبها . وعلى حين غرة عبر نهر السبر بجموع حاشدة من المغول ، وتغلب على المقاومة التى لقيها من جنود التتر ونشر الرعب والخراب فى البلاد .

ولم يكن تيمور إذ ذاك فى سمرقند . لقد ذهب فى رحلة كشفية إلى بحر قزوين مع فريق من الجند . وهناك فاجأته الأخبار المزعجة التى تلقاها عن بلاده فشد الرحيل إليها ، وتمكن من أن يصل إلى سمرقند قبل أن يقترب منها جيش العدو .

وعلم تكتمِيش بعودة تيمور ، فعاد أدراجه إلى بلاده ، لأنه لم يرد أن يشتبك مع تيمور فى موقعة حاسمة .

وجمع تيمور الأمراء وقواد الجيش وكبار الضباط ، وكافأ الذين دافعوا عن البلاد ببسالة ، سواء منهم من انتصر أو غلب على أمره . واستحضر ضابطاً فر من الميدان ، وخلع عنه زيه العسكرى وألبسه ثوب امرأة ، وطلى وجهه بالأبيض والأحمر ، وساقه فى شوارع المدينة حافى القدمين ليسخر منه الجمهور .

وأدرك تيمور أن « تكتميش » سيعود حتما لغزو بلاده ، فعكف على تنظيم جيشه وتعزيزه بعناصر قوية من الرجال الأشداء . وقد صدق ظنه . فقد هبط « تكتميش » من الشمال بجيش لا يحصى له عد ، وأعاد تمثيل المأساة الأولى . واستغل أهل جرجانية هذه الفرصة فخرجوا على حكم تيمور ، وأغاروا على البلاد المجاورة ، يعملون فيها السلب والنهب غير عابئين بصلة النسب التى تربط أميرتهم خان زاده ببيت تيمور . وتغاضى عنهم تيمور مؤقتاً ، وذهب لملاقاة تكتميش ، ولكن هذا كان أروغ من الثعلب ، ففضل الانسحاب ، طمعاً فى أن يتعقبه تيمور فيستدرجه فى وهاد سيبريا القاحلة ، حتى إذا أدركه الجوع والتعب باغته بضربة قاصمة تقضى عليه وتفنى جيشه . وما كان تيمور ليتردد فى اللحاق به ، ولكنه أثر أن يطمئن أولا على سلامة الأمن فى بلاده ، حتى لا تقوم فيها الثورات وهو بعيد عنها . فسار إلى جرجانية وحاصرها ، وترك الجوع يفتك بها . ثم هدم أسوارها وحصونها ، وأطلق جنوده لتأديب أهلها ، فسلبوا أموالهم وأبادوهم طعناً بالحراب والسيوف ، ثم أشعلوا النار فى المدينة وتركوها خراباً موحشاً مكدساً بجثث القتلى . وكان هذا درساً قاسياً للبلاد الأخرى فظلت على ولائها لتيمور .

وأقبل « تكتميش » للمرة الثالثة بجحافله المغولية ، ووطد تيمور عزمه على اللحاق به ومطاردته بحيث لا يفلت منه . وكان يعلم أن الرحلة ستكون طويلة شاقة ، وفى صحارى مجدبة لا زرع فيها ولا ماء ، ولا تجود بالصيد ، وأن خصمه يستطيع أن يجند من بلاده رجالا لا حصر لعددهم ، ويمدهم بما يحتاجون إليه من مؤونة وذخيرة ، ولكن هذا لم يثنه عن عزمه . فخرج من سمرقند فى جيش قوامه مائة وخمسون ألف فارس ، مزود كل منهم بدرع ، وخوذة ، وسيف ، وقوسين ، وكنانة مملوءة بالسهام ، وحربة مدلاة وراء ظهره . واحتاط للطوارئ ، فأعد لكل منهم فرساً آخر . لأن الجندى فى مثل هذه الحرب إذا فقد فرسه أصبح قليل الجدوى . وسار وراء هذا الجيش مئات العربات والإبل التى تحمل الخيام والأمتعة والمؤونة .

المطاردة

سمع « تكتميش » بقدوم تيمور ففر كعادته واختفى عن النظر ، ولكن تيمور قد أعد فريقاً من الكشافة ووزعهم فى جهات متفرقة ، وأمرهم باقتفاء أثر العدو وتتبع خطواته وموافاته بأخباره وحركاته . وبهذه الوسيلة تمكن تيمور من السير إثر خصمه ومطاردته .

وأدرك « تكتميش » أن تيمور يتبعة كظله ، فعمد إلى إرهاقه وإنهاك قواه بالارتحال الدائم بين قفار سيبريا وصحاريها المجدبة . واضطر تيمور أن يسير فى أثره . فعبر نهر السير ، واجتاز الصحراء القاحلة إلى أقصى الشمال ، ثم انحرف غرباً حتى وصل إلى نهر الأورال الذى يتفرع من الفولجا .

واستغرقت الرحلة ثمانية عشر شهراً ، قطع فيها الجيش ألفاً وثمانمائة ميل ، وكان تكتميش يخلى المناطق التى يمر بها من سكانها وماشيتها وما بها من مواد التغذية لكى لا ينتفع بها خصمه ، ولكن تيمور روض رجاله على احتمال الشدائد والصبر على المكروه ، والمعيشة على الكفاف . وكان إذا تزمر أحد الجند أنزله عن فرسه ، وأرغمه على السير حافياً ، وملأ

حذاءه بالرمل وعلقه حول عنقه . وإذا توانى فى السين لقى حتفه .

وتعتبر هذه الرحلة من أشق الرحلات التى قطعها جيش فاتح ، ولولا يقظة تيمور وشدته لباءت بالفشل والهزيمة . وقد حاول الروس أن يرتادوا هذه المجاهل فى عهد بطرس الأكبر الذى سير إليها جيشاً فى سنة ١٧١٦ م بقيادة الأمير الشركسى بيكوفتش ، فضل فى وهادها وهجم عليه التركمان ، وأهل خيوه فقتلوه وأبادوا جيشه .

وأخيراً وصلت أنباء الكشافة بأن « تكتميش » رابض بجيشه الكثيف فى الأدغال الممتدة على الضفة الأخرى للنهر ، وأنه يستعد للقتال . وكان هذا ما تصبو إليه نفس تيمور ، فأمر أن تضرب الخيام ليستريح الجيش طول الليل وأن يطهى كل الطعام المخزون ليتمتع الجند بأكلة طيبة .

ولما انبثق الفجر أمر تيمور باجتياز النهر ، ثم نظم صفوف جيشه ، وأرسل ابنه « عمر شيخ » فى الطليعة ومعه عشرون ألفاً من الجنود الممتازين بالشجاعة ، ليبدأ بمناوشة العدو ، ثم عززه بخمسة آلاف رجل بقيادة سيف الدين . وكان تكتميش قد أعد جيشه ونظمه ، حتى لا يؤخذ على غرة ، وجعل خطوطه فى شكل قوس طولها ميلان ، ومنحرفة نحو العدو ، لتطبق عليه فى أثناء المعركة . وكانت متفوقة فى العدد والعدة على جيش تيمور .

ولم يتهيب « سيف الدين » « وعمر شيخ » من الجموع المتراصة أمامهما كحائط من الفولاذ ، فاندفعا صوبها ، واشتبك الفريقان فى صراع عنيف شاق . وتحرك تيمور بجيشه جاعلا الميمنة بقيادة ابنه الصغير ميران شاه ، والميسرة والوسط بقيادة أميرين ماهرين . وسار خلف الجيش بحرسه الخاص ليشرف على المعركة ويتفقد نقط الضعف فى صفوف جنده ليبادر بنجدتها .

وأمر تيمور بالهجوم ، فانطلق رجاله كالذئاب الجائعة ، وتوغلوا فى صفوف أعدائهم ببسالة منقطعة النظير ، فثبتوا لهم ، وحمى وطيس القتال ، وسالت الدماء غزيرة من الجانبين ، وتطايرت أشلاء القتلى ، وخلت الخيل من راكبيها ، فجمحت وداست بحوافرها الجثث التى تكدست فى الميدان . واستمر الصراع ساعات طويلة بين مد وجزر ، إلى أن أخذ الإعياء بالمغول وتخلخلت صفوفهم . ورأى تيمور دلائل الضعف والتفكك فى الجنود المحيطين بتكتميش ورايته الملكية . وكان يترقب هذه الفرصة من بدء المعركة ، فاستغلها وهجم عليهم فجأة بحرسه الخاص ، فدب فيهم الذعر وتراجعوا أمامه . وأدرك تكتميش أن هزيمته محققة ، فآثر الفرار على الكفاح ، وتبعه أمراء المغول ونبلاؤهم ، وسادت الفوضى بعد ذلك فى جنود

الأعداء ، فمنهم من نجا بنفسه مختفياً عن الميدان ، ومنهم من واصل القتال فخر صريعاً ، أو وقع فى الأسر . وجمع تيمور الأسرى وأمر بقتلهم جميعاً وإلقاء جثثهم فى مستنقعات الفولجا . ويذكر المؤرخون أن مائة ألف من المغول لقوا حتفهم فى هذه المعركة .

واستولى تيمور على مخلفات جيش المغول من خيل وعتاد حربى وأموال طائلة ، كانت مكدسة فى خيام الأمراء الفارين . ثم أطلق رجاله للسلب والنهب ، فبدأوا بالبلاد الواقعة على ضفتى الفولجا ، ثم انحدروا إلى الروسيا فوجدوا بها ثراء لم يحلموا به ، من ذهب وفضة وجواهر وثياب حريرية وفراء ثمينة . وصدر إليهم الأمر بالعودة إلى المعسكر ، فرجعوا ومع كل منهم رعيل من الخيل ، وثروة يعيش بها غنياً طول حياته . هذا عدا السبايا من الفتيات الجميلات .

واختار تيمور أميراً من المغول المخلصين له ، وولاه خاناً على الأقطار الشاسعة التى ضمها لملكه فى هذه الحرب ، على أن يكون خاضعاً لسلطانه ، وعززه بجيش قوى ، ثم عاد إلى سمرقند .

ومرت ثلاث سنين وتكتميش قابع فى مخبئه . ولكنه عاد فجأة من أعالى الفولجا وانضمت له سراى وأستراخان .

واضطر تيمور أن يرجع بجيشه ، ليدرأ هذا الخطر . واستطاع أن يهزم عدوه ، فلجأ إلى الفرار تاركاً أتباعه للقضاء المحتوم .

وقرر تيمور أن يؤدب المدينتين اللتين ثارتا عليه ، فدكهما دكاً ، وأشعل النار فيهما ، حتى التهمت مبانيهما ، ثم قتل سكانهما جميعاً .

وارتاعت موسكو عندما سمعت أن رايات تيمور تخطت نهر الدون ، وساد الفزع والاضطراب بين الأهالى . واستعد أميرها للحرب ، ولكن أمله كان ضعيفاً . وقد أرسل إلى مدينة فيشاجورد Vishai gorod واستحضر تمثالا قديماً للعذراء كان للروس اعتقاد راسخ فيه . وسيره فى المدينة بين الأهالى الراكعين على جوانب الطرق ، متضرعين إلى العذراء أن تدرأ عنهم الخطر .

ولأمر غير معروف عدل تيمور عن عزمه ، وانحدر إلى الجنوب يبغى ارتياد الجانب الغربى من بحر قزوين . واجتاز بلاد القوقاز ذات الجبال الشامخة والأدغال الكثيفة والمسالك الوعرة ، وقاومه سكانها الجورجيون ببسالتهم المعروفة ، ولكنه تغلب عليهم ، بعد جهد ومشقة وخسارة كبيرة فى الأرواح . ووصل إلى الحدود الشمالية لبلاد الفرس . ومر ببعض البلاد فاستسلمت له .

أبراج من جماجم البشر

واصل تيمور السير إلى مدينة تكريت (على الدجلة بين بغداد والموصل) ، وكان يحكمها أمير مستقل لا هم له مع قومه إلا سلب القوافل وقطع الطريق . وتقع المدينة على ربوة عالية ، ويحيط بها سور سميك ذو حصون منيعة . ولا يمكن الوصول إليها إلا بطريق واحد خلال صخور وعرة المسالك . وأرسل تيمور إلى حاكمها يطلب منه تسليمها ، فأبى وسد الطريق المؤدى إليها . وحاصر تيمور المدينة سبعة عشر يوماً ، إلا أنها لم تستسلم ، فأمر مهندسيه بصنع منجنيقات ضخمة ، لتقذف مبانيها وسكانها بالأحجار ، ولكن هذا لم يثمر . وعيل صبر تيمور ، فعهد إلى فريق من الجنود البواسل أن يتسلقوا الصخور بأية تضحية ، ويفتحوا فجوات فى أساس السور ، بآلات الحفر ، ثم يملأوها بالوقود والزيت ويشعلوا النار فيها ، وتلك طريقة قديمة لنسف المبانى . وقام الجند بما أمروا ، غير مبالين بما يصيبهم من فتك السهام والحراب التى يقذفها عليهم الحراس من أعلى السور . وتصدعت الجدران فى مواضع كثيرة ، وتسلق تيمور الصخور ، وتبعته جموع كثيرة من جيشه ، ودخل

المدينة فاستسلمت له بعد مقاومة ضعيفة من الحراس . وعفا تيمور عن السكان الوادعين ، ولكنه جمع المحاربين وقتلهم جميعاً ، وفصل رءوسهم ، وأقام من الجماجم هرمين كبيرين ثبتهما بالملاط ، وكتب على قاعدة كل منهما « تلك عاقبة الباغى الأثيم » وكان أولى به أن يكتب « هذا جزاء من لا يخضع لتيمور » .

أصبح تيمور الآن سيداً على القوقاز ، وشطر من فارس والمناطق الشمالية بآسيا ، بما فيها بحرا القزوين والآرال . وقامت البلاد الواقعة فى هذا الملك الشاسع بدفع الجزية المفروضة عليها ، فتدفقت الأموال على خزائن سمرقند فى سيل غزير غير منقطع .

ودفع تيمور ثمناً غالياً لهذا المجد ، لأنه أصيب بفقد أعز الناس لديه . فالأمراء ذهبوا ضحية الحرب ، ولم يبق منهم إلا نفر قليل . « وخيتاى بهاتور » لقى حتفه وهو يعبر نهر السبر . « والشيخ على بهاتور » أصيب بطعنة خنجر من جاسوس تركى ومات على الأثر . وكانت أشد المصائب التى انخلع لها قلبه موت ابنه « عمر شيخ » بسهم أصابه فى القوقاز . ولما سمع بهذه الفاجعة قال : « لقد وهبه الله لى وشاءت قدرته أن يحرمنى منه » ثم أمر أن ينقل جثمانه إلى سمرقند .

وقصد تيمور المدينة الخضراء ، وأوى إلى قصر جديد كان

قد أمر ببنائه ، ولزم الصمت والعزلة عن الناس ، ورفض أن يستقبل أحداً من الأمراء أو القواد أو رجال ديوانه . وكان يقضي وقته منكباً على رقعة الشطرنج وحيداً . لا مؤنس له سوى التفكير العميق الطويل الأمد .

وفى أحد الأيام قام مبكراً من نومه ، وشد الرحيل إلى سمرقند وزار قبر ابنه جاهنجير ، وأمر بتوسيعه وتنسيقه لينقل إليه رفات ابنه الثانى « عمر شيخ » .

ثم استدعى الأمراء والقواد وأمر أن يتجهز الجيش للمسير ، ولما سئل إلى أين ؟ قال : إلى بلاد الفرس .

غزو فارس

كان تيمور مرتبطاً مع شاه الفرس رأس أسرة المظفر بمعاهدة ، وحرص الجانبان على احترامها . وأحس الشاه بدنو أجله ، فأرسل إلى تيمور هدية ثمينة وخطاباً مطولا جاءت فيه العبارات الآتية : « سأودع هذا العالم قريباً . وأمنيتى أن أحمل معى يوم الحساب تلك المعاهدة التى عقدتها معك ، حتى لا تؤنبنى بنقضها . لأنى أعتبر صداقتى معك أعظم نصر نلته فى حياتى . فأنت حكيم كسليمان . وعظيم كالإسكندر. وإنى لأطمع فى أن أضع ابنى المحبوب « زين العابدين » تحت حمايتك . وأدعو الله أن يطيل حياته فى ظل رعايتك . هل يساورنى شك فى أن جلالتك ستحافظ على العهد والميثاق » .

ومات الشاه ، وتنازع الملك عشرة أمراء ، واستعر لهيب الحرب بينهم ، واقتطع كل منهم مدينة كبرى وأقام نفسه ملكاً عليها . واضطرب الأمن وسادت الفوضى فى البلاد . ورأى تيمور أنه أولى بحكم هذه البلاد الغنية من أمرائها المنشقين على أنفسهم . فشد الرحال إليها سنة ٧٨٨ هـ — ١٣٨٦م بجيش عدته سبعون ألف رجل . ووصل أولا إلى أصفهان ، وعسكر خارجها

وجاء أميرها ليستقبله ويحييه فرد تحيته بمثلها . ثم فاجأه بقوله : إنه لم يغادر سمرقند ويقطع ألف ميل مع جيشه لمجرد النزهة أو سماع الكلمات المعسولة ، ولكنه يبغى أن يفرض حكمه على البلاد الفارسية ، فيكون أمراؤها ولاة من قبله يدينون له بالطاعة ، وينفذون أوامره ، ويدفعون الجزية التى يفرضها عليهم ، وإلا فالسيف حكم بينه وبينهم . ولم يجد الأمير مفراً من الخضوع لتيمور ودفع الجزية فى الحال .

ولما أقبل الليل دخل بعض جنود التتر المدينة وهم عُزْل من السلاح ، وانتشروا فى أرجائها طلباً للهو والتسلية ، ودخلوا الحانات وعبثوا بها . وثارت العناصر المتحمسة من شباب الفرس لدى رؤية هؤلاء الدخلاء المتغطرسين ، فتجمعوا بقيادة أحدهم (وكان حداداً) وانطلقوا فى أحياء المدينة ، وتصيدوا الجنود وقتلوهم عن آخرهم . ووقعت هذه الثورة بسرعة فلم يتمكن أمير المدينة ولا رجال الضبط من قمعها .

وفى الصباح علم تيمور أن ثلاثة آلاف رجل من جنوده قتلوا داخل المدينة ، فغضب واستسلم لغريزة الانتقام التى طبع عليها قومه ، وأصدر أمره إلى الجيش أن يقتحم المدينة ، وأن يعود كل جندى ومعه رأس قتيل من أهلها . ونفذ الجيش هذا الأمر ، فاستحالت المدينة إلى مجزرة بشرية مخيفة . وأحجم

بعض الجنود عن الاشتراك فيها خشية أن يغتالوا رجلا مؤمناً وادعاً ، ولكنهم ابتاعوا رءوس القتلى من زملائهم ، وفى آخر النهار تكدست أمام تيمور سبعون ألف جمجمة من الضحايا ، فأمر أن تقام منها أبراج فى الشوارع الرئيسية للمدينة .

وسار تيمور إلى المدن الفارسية الأخرى ، وكانت أخبار فاجعة أصفهان قد سبقته إليها ، فاستسلمت إليه كلها دون مقاومة أو اعتراض ، وأقام عليها حكاماً من أمرائها ، يدينون له بالطاعة ، ويدفعون له الجزية .

وكان الفرس فى هذا العهد مرهقين بالضرائب الباهظة التى فرضها عليهم حكامهم السابقون ، فأمر تيمور أن تخفف هذه الضرائب إلى أقصى حد مستطاع .

ويذكر المؤرخون أنه لما جاء تيمور إلى شيراز أرسل فى طلب الشاعر الفارسى « حافظ » . فاستولى عليه الخوف ، ومثل بين يدى العاهل العظيم فى أطمار بالية ليستدر عطفه . فسأله « ألست أنت القائل ؟ « لو أن فاتنتى بشيراز وضعت قلبى بين يديها لوضعت سمرقند أو بخارى تحت قدميها قال : نعم يا مولاى . قال : لقد أخذت سمرقند بحد السيف وجملتها بالكنوز التى أحملها إليها من البلاد التى أغزوها ، فكيف تستطيع أيها الصعلوك الحقير أن تضعها تحت قدمى فتاة

شيرازية ؟ قال : إن فلتات لسانى يا مولاى هى التى أودت بى إلى الفقر ، وهوت بى إلى مصيرى هذا . . . فاعذرنى ! فسر تيمور من إجابته وأمر له بمبلغ كبير من المال .

أصبحت إمبراطورية الفرس الغنية كلها تابعة لتيمور ، ولكنها كانت مهددة فى حدودها الغربية بالتركمان أتباع « قره يوسف » الذى أسس لنفسه دولة فى أرمينية وكردستان سنة ١٣٧٦ م ، وكان رجلا جريئاً قوى الشكيمة . لا تقف مطامعه عند حد . وأراد تيمور أن يأمن شره ، فسار من شيراز إلى الشمال فى اتجاه بحر قزوين ، وشن عليه هجوماً شديداً وهزمه وبدد جيشه ، وقضى على نفوذه ، وانتزع مدينة الموصل على أعالى الدجلة . ثم سار منها إلى مدينة تبريز ، فلم تقاومه ، وفتحت أبوابها له . وكان لها مجلس من أهلها يدير شئونها ، ففرض عليه تيمور جزية سنوية فدفعها فى الحال .

وكانت تبريز إذ ذاك أكبر وأغنى مدينة فى العالم بلغ تعدادها مليونين وربع مليون من الأنفس . واختلط بأهلها جاليات من الفرس والنسطوريين والجورجيين والعرب وفريق من تجار جنوة . وكانت مركزاً لتبادل التجارة بين الشرق والغرب ، تمر بها القوافل القادمة من آسيا وتتجه غرباً إلى آسيا الصغرى وموانئ البحر الأبيض . أو جنوباً إلى بغداد والخليج

الفارسى . أو شمالا إلى سيبريا وروسيا . فلا عجب أن يقصدها التجار من أنحاء العالم ليبيعوا ويبتاعوا ويستوردوا ويصدروا . وقد ذكر ابن بطوطة الذى زار هذه المدينة أن باعة العنبر كانت لهم سوق كبيرة مخصصة لهم . وأنه لما مر بتجار الجواهر ذُهل وغُشى بصره من المعروضات الغالية التى لا يحصيها عد .

ولا يعرف بالضبط مقدار الضريبة التى كانت تدفعها هذه المدينة سنوياً لتيمور ، ولكن يقال إنها تزيد على دخل ملك فرنسا فى ذلك الحين .

مأساة الابن الثالث

أصبح تيمور فى الثالثة والخمسين من عمره . وقد اتسعت أملاكه فشملت إمبراطورية الفرس العظيمة وشطراً من العراق ، ولم يشأ أن يوالى فتوحاته ، فعاد إلى سمرقند طلباً للراحة ، ولكنه لم يحظ بها . إذ استقبلته أخبار مزعجة عن ابنه « ميران شاه » الذى كان قد عينه حاكماً لإقليم بحر قزوين . فقد التف حوله فريق من ندمان السوء وأغروه على الإدمان فى شرب الخمر وتعاطى المخدرات والانهماك فى الملذات فانصرف إليها مسرفاً فيها ، حتى فقد اتزان عقله ، وأصابته نوبات عصبية ارتكب فيها أعمالا جنونية . فشرب الخمر علناً فى المساجد ، وقذف بالأموال والجواهر من نوافذ قصره ليلتقطها الجمهور . وأمر بهدم القصور والمستشفيات فى مدينتى تبريز وسلطانية .

وأقبلت على القصر سيدة مقنعة مرتدية ثوب الحداد ، وطلبت المثول بين يدى تيمور ، ولما عرف الحراس اسمها فسحوا لها الطريق ، فدخلت على الأمير وحيته ، فسألها عن حاجتها ، فكشفت عن وجهها فإذا بها « خان زاده » زوج ابنه جاهنجيز ، فرحب بها ، وهاله أن يراها حزينة باكية ،

فاستفسر عن السبب فقالت : إنها كانت مقيمة مع خدمها وحاشيتها فى إحدى البلاد التى يحكمها ميران شاه . فسولت له نفسه أن يغتصبها ، وحملها قسراً إلى بيته بالرغم من مقاومة أتباعها ، وأسفرت جريمته الشنيعة عن جنين يتحرك فى أحشائها . وقد استطاعت أن تفر وتلجأ إلى والدها الحنون وتفضى إليه بما أصابها من خزى وعار .

وانتفض تيمور غضباً ، وحز فى نفسه أن تمتهن كرامة خان زادة فى حياته وقد كانت زوج ابنه الأكبر ، الذى احتل المنزلة الأولى فى قلبه . ولم يكن فى مقدوره أن يرد قضاء نافذاً ، ولكنه أشفق على أرملة ابنه ، وحباها بعطفه ، ووهبها أموالا كثيرة وضياعاً واسعة وزودها بالجوارى والخدم والحرس ، لتعيش فى كنفه معززة مكرمة منيعة الجانب .

ولم يطق صبراً بعد ذلك ، فشد الرحال إلى مدينة سلطانية ، وتفقد بنفسه آثار التخريب الذى حل بها ، وأمر بقتل « ميران شاه » فى الحال . فقبض عليه وسيق أمامه مقيداً ذليلا . وهنا تدخل الأمراء قائلين : إنه صغير السن ، قليل الخبرة ، دفعه نزق الشباب إلى ارتكاب المساوئ التى زينها له رفقاؤه . ولان تيمور أمام إلحاحهم ، ولكنه عزله عن الحكم ، وجرده من سلطة الأمراء ونفوذهم ، وأمره أن يظل مقيما فى البلاد التى كان

حاكماً عليها ، خاضعاً لسلطان حاكمها الجديد الذى عينه مكانه .

وصب تيمور جام غضبه على أصدقاء ابنه وندامى شرابه فقتلهم جميعاً . ويتساءل التاريخ هل كانت « خان زاده » منزهة عن الخطأ عفيفة حريصة على عرضها . أم أنها أوقعت هذا الفتى الطائش فى شرك أحكمت تدبيره بدهائها المعروف ، مع الاستعانة بجمالها الساحر وجاذبيتها التى لا تقاوم ؟ . وسواء أكان هذا أم ذاك فإن ابنها « خليلا » الذى وضعته من « ميران شاه » أثار فتنة هوجاء بعد موت تيمور ، واستولى على العرش فترة من الزمن ، وكانت أمه أقوى نصير له .

تنظيم الإدارة

انصرف تيمور بعد ذلك إلى تنظيم الإدارة فى ملكه الشاسع ، الذى ضم شعوباً كثيرة غير متجانسة فى اللغة واللهجة والعادات ، كالتتر والمغول والترك والفرس وغيرهم ، وكان همه الأول أن تظل هذه الشعوب موالية له راضية بحكمه . فإذا ما ظهرت بوادر الثورة فى منطقة قريبة أو نائية قمعها فى الحال بقسوة لا مثيل لها ، وبطش بالمحرضين عليها ، حتى لا تقوم لهم من بعد قائمة .

وأصلح طرق القوافل ومهدها ونظفها ، وبنى فيها بيوتاً للنوم والراحة ، وأمدها بالماء من أنابيب ممتدة بينها وبين البلاد القريبة . وأقام على الطرق حراساً من الجند والضباط ، وجعلهم مسئولين عن صيانة الأمن فيها وسلامة المواصلات . وكان تجار القوافل لا يدفعون سوى ضريبة واحدة ، مع أن بعضهم كان يقطع فى بلاده مسيرة خمسة أشهر . وقد تيسر بهذا النظام تبادل التجارة بين أنحاء الإمبراطورية المترامية الأطراف ، وبين الشرق والغرب . وكان أهم الطرق وأطولها هو المعروف بدرب خراسان العظيم . يبدأ من الصين وصحارى جوبى ، ويتجه شمالا

نحو « ألمالك » ثم يميل غرباً إلى سمرقند فسلطانية وتبريز وأخيراً إلى القسطنطينية .

وقد وصف هذا الطريق كلافيجو (Ruy de Gonzalez Clavigo) الذى كان سفيراً لأسبانيا لدى تيمور فى سنتى ١٤٠٢م ، ١٤٠٣م . ومما رواه أن الطريق ممهدة نظيفة لا تقع العين على حجر واحد ملقى فيها ، وتتخللها منازل للراحة يتوافر فيها الغذاء والماء العذب الصافى ، وبها محطات لتبادل الخيل والإبل ، والأمن فيها مستتب .

ووضع تيمور نظاماً دقيقاً للبريد يكفل به سرعة الاتصال بجميع البلاد التابعة له ، وتسلم الرسائل الصادرة منها ، وإرسال الأوامر للحكام وقواد الجند . فقسم الطرق إلى مسافات متساوية بأعمدة أقيمت عليها ، يبعد أحدها عن الآخر بفرسخ واحد ، أى نحو خمسة أميال . وزود رجال البريد بدواب سريعة ، وأمرهم أن يواصلوا السير ليلا ونهاراً ، وأن يجتازوا فى اليوم الواحد اثنى عشر عموداً أى ٦٠ ميلا ، وأعد لهم منازل يستبدلون فيها بالدواب المتعبة غيرها ، وجعل حراس الطرق مسئولين عن سلامة هؤلاء الرجال .

وبث تيمور جواسيسه فى البلاد يرسلون إليه تقاريرهم عن كل صغيرة وكبيرة تقع تحت حسهم ، ويحيطونه علماً بأخبار

حكامه وقواده وزعماء القبائل . وكانوا يتحرون الصدق فيما يكتبون ، لأنهم كانوا يعلمون أن افتراء الكذب أو اختلاق الحوادث عقابه الإعدام .

وكان الجند يتسلمون مرتباتهم من بيت المال ، وقد حرم عليهم أن يتعرضوا للأهالى بإساءة أو مكروه ، ومنعهم من دخول البيوت بغير دعوة من أصحابها .

وفرض ضرائب على الأراضى الزراعية ، تجنى بعد جمع المحصول ، وتقدر بثلث قيمته . وتدفع عيناً أو فضة . وتنقص نسبة الضريبة على الأراضى التى تعتمد على المطر وحده ، أما الأرض البور فتوزع على المزارعين الذين يستطيعون إصلاحها ، وتعفى من الضريبة إلى أن تجود بمحصول جيد .

وقطع دابر اللصوص وقطاع الطرق ، وجعل حكام البلاد وضباط الطرق مسئولين عن أى متاع مسروق ، وملزمين برده لصاحبه .

وحاول أن يقضى على الشحاذين فلم يفلح ، وزع عليهم الخبز واللحم يومياً ، إلا أن هذا لم يمنعهم من مزاولة مهنتهم الممقوتة فقتلهم جميعاً . وبعد فترة قصيرة ظهر خلفاؤهم ينادون فى الطرقات : « يا حق أنت الكريم » ؛ فاضطر أن يتجاهل أمرهم . ومن عجب أن هذا الرجل الشديد البطش الذى انتصر فى جميع الحروب التى شنها على العالم ، أعوزته الحيلة مع

الشحاذين فتراجع أمامهم . . .

ومن غريب أمره أنه ظل قانعاً بلقب الأمير ، وأعجب من هذا أنه احتفظ بالعهد القديم بين المغول والتتر ، فاختار أحد أحفاد جنجيزخان ونصبه خاناً على البلاد ، وشيد له فى سمرقند قصراً عظيماً يليق بمنزلته الرفيعة ، وأحاطه بمظاهر العز والترف ووسائل المتعة . ولكنه كان قابضاً بنفسه على زمام السلطة ، لا يشاركه فيها أحد ، حتى أن الدعاء فى المساجد كان للأمير تيمور وحده . وقد نقش على خاتمه زخرفة مكونة من كلمتين فارسيتين : « راستى روستى » ، ومعناهما الحق للقوة .

ومن أظهر صفاته أنه كان يمقت الجبن ويحب الشجاعة ويكافئ كل جندى أو ضابط أو قائد يقدم على عمل جرىء أو يخاطر بحياته . وقد تصل المكافأة إلى جزية مدينة أو لقب أمير بما يتبعه من مزايا . وكان يقول إن هؤلاء الرجال الذين يضحون بسعادتهم وراحتهم فى سبيل الشرف يستحقون منى المكافأة مهما غلا ثمنها .

وكان المؤهل للترقية فى مراتب الجيش الأعمال التى تبدو فيها الشجاعة والتضحية بالنفس . وقد أعد سجلا دون فيه أسماء الجند ، وقيد أمام كل منهم أعماله الممتازة بالجرأة والإقدام .

أراد تيمور مرة أن يستولى على حصن إيرانى منيع يسمى « القلعة البيضاء » أقيم على قمة جبل . وكان الطريق إليه وعر المسلك ، إذا اقتحمه عدو أصيب بخسارة فادحة . وحاول الجند أن يتسلقوا الصخور مرة بعد أخرى ، ولكنهم كانوا يرتدون عنها تحت وابل من السهام التى كانت تصوب إليهم من الحراس وتفتك بهم . وحار تيمور فيما يفعل . وحانت منه التفاته إلى أعلى السور فرأى جندياً من جيشه يظهر فجأة بين الحراس ويشهر سيفه ، ويهجم عليهم بمفرده ، ويفاجئهم بضربات سريعة صائبة ، وقد انصرفوا إليه متخلين عن مواقفهم فى الحراسة . وانتهز تيمور هذه الفرصة فأمر جنوده بتسلق الصخور على الفور ، فأطاعوا أمره ، ووصلوا إلى قمة السور ، وأنقذوا زميلهم وتغلبوا على الحراس وسقط الحصن . واستدعى تيمور هذا الجندى الباسل الذى خاطر بحياته ليشغل الحراس عن رمى السهام ، ودهش لما رآه سليما من الأذى ، مع أنه ظل مشتبكاً مع الحراس مدة طويلة وقتل منهم عدداً كبيراً . وسأله عن اسمه فقال : « آك بوجا » ومعناها الجندى الباسل الأبيض اللون ، فمدحه تيمور وعينه قائداً لعشرة آلاف ، ووهبه مبلغاً من المال يكفل له عيشاً رغيداً طول حياته ، وأهدى إليه عدداً من الخيل الأصيلة ، وبعض الجوارى الفاتنات .

ولم تستقر الأمور فى بلاد الفرس ، لأن أمراءها عادوا إلى النزاع ، وقامت الحرب بينهم سجالا ، وتغلب عليهم الشاه « منصور » وقبض على « زين العابدين » ابن الشاه المتوفى وسمل عينيه بالحديد المحمى وسجنه . واضطر تيمور أن يسير إليهم ، واستصحب معه ابنه « شاه رخ » . وقد استطاع أن ينتصر عليهم ويفنى قوتهم . وكاد يفقد حياته فى إحدى المواقع ، لأن الشاه منصوراً رآه يتفقد الموقعة من بعد ، فهجم عليه فجأة مع شرذمة من الفرسان ، ومد تيمور يده ليستل سيفه ، فلم يجده لأنه أغفل أن يحمله ، فأصبح أعزل من السلاح ، ولكنه استطاع أن يتفادى الضربات المصوبة إليه بحركات سريعة إلى أن أقبل فريق من جنده وشتتوا أعداءه . وهزم الشاه منصور واضطر أن يفر ، ولكن « شاه رخ » تتبع أثره وعاد حاملا رأسه وألقى به تحت قدمى أبيه .

وأمر تيمور بالقبض على أمراء الفرس ثم قتلهم . واستثنى منهم « زين العابدين » فأكرمه وأرسله إلى سمرقند ، ومهد له سبيل الحياة المترفة الهادئة .

وبانتهاء حكم هؤلاء الأمراء نجا الفرس من شرور أسرة المظفر التى عاثت فى الأرض فساداً من سنة ٧١٩ هـ — ١٣١٩م إلى سنة ٧٩٧ هـ — ١٣٩٤ م .

قصة الحشاشين

علم تيمور أنه ما زال فى شمال فارس وكر لجماعة الإسماعيلية « الفدائية » ، فهدمه وقتل سكانه جميعاً . ويطلق اسم الحشاشين على هذه الجماعة . وتروى عنها أقاصيص كثيرة ، للخيال نصيب فيها .

والإسماعيلية فريق من الشيعة ينتسب لإسماعيل بن جعفر الصادق ، الذى يرجع نسبه إلى على بن أبى طالب . وقد تفرعت عنها جماعة الإسماعيلية الفدائية فى أواخر القرن الحادى عشر بزعامة رجل من خراسان يسمى حسن الصبّاح . وقد التف حوله عدد كبير من الأنصار ، من سكان البلاد الجبلية الواقعة جنوبى بحر قزوين . واستطاع فى سنة ٤٨٣ هـ — ١٠٩٠ م أن يغتصب مدينة « ألموت » ثم حصنها وأقام فيها .

وكان يستحل قتل من لا يؤمن بتعاليمه أو يسخر منها ، والقضاء على أية شخصية فى آسيا يعتبرها خطراً عليه . ولجأ فى تنفيذ أغراضه إلى وسائل سرية مستغلا بساطة أتباعه واعتقادهم فى نزاهة مآربه . وكانوا أطوع له من بنانه ، يغرى أحدهم بقتل أمير أو حاكم فى بلد قريب أو بعيد فلا يشعر هذا المسكين

إلا وقد أصابته طعنة خنجر من مجهول تسلل إليه خفية .

وكان له فى هذا المجال ضحايا كثيرة ، منها نظام الملك السلجوقى الذى كان من قبل صديقاً له .

وقد تمكن أنصاره من أن ينشئوا فروعاً لمذهبهم فى سورية وغيرها ، وتحصنوا فى أماكن جبلية منيعة .

ومات حسن الصباح سنة ١١٢٤ م وآلت الوراثة إلى ذريته ، فتعاقبوها ابناً عن أب وساروا على نهجه . وينسب إليهم قتل خليفتين ببغداد : المسترشد والراشد ، وأمراء حلب ودمشق والموصل ، وأميرين من الصليبيين رايموند وكونارد (Count Raymund of Tripoli & Conrad of Montferrat)

وقد سبب نشاط هذه الجماعة فزعاً ورعباً بين ملوك آسيا وأمرائها . وكان طبيعياً أن ينتشر صيتها فى كل البلاد ، وأن يتناقل الناس أخبارها ، موسعين فيها مجال الخيال ، وأن ينسبوا إليها كل جريمة لم يعرف الباعث عليها .

وكان آخر زعمائهم ركن الدين الذى ورث أباه سنة ١٢٥٥ م ، وهو لم يتمتع بمنصبه سوى سنة واحدة ، لأنه أغرى أحد أتباعه بقتل أمير من المغول ، فغضب عاهلهم « مانجوخان » وسير إليه أخاه هولاكو ، فدمر حصونه واستولى على قلعة « ألموت » وغيرها من قلاعه ، وقتل من أعوانه اثنى عشر ألفاً

وقبض على ركن الدين وأرسله إلى الخان فأمر بقتله . وبهذا انقرضت هذه الطائفة من بلاد الفرس . ولكنها ابتدأت تظهر ثانية فى عهد تيمور ، فقضى عليها . أما فى سورية فقد تولى الظاهر بيبرس هدم حصونها وإبادتها .

كيف تسنى لرئيس هذه الجماعة أن يغرى أتباعه بارتكاب جرائم القتل فى بلاد غريبة عنهم ، وكيف يطيعونه مع ما يتعرضون له من خطر محقق على حياتهم ؟ يجيبنا عن هذا السؤال ماركو بولو (Marco Polo) الإيطالى الذى مر ببلاد الفرس سنة ١٢٧٤ م وسمع الشائعات التى يتناقلها الناس عن هذه الطائفة ، ودونها فى مذكراته . وقد وصف الوسائل التى كان يتبعها زعيمهم علاء الدين الملقب بشيخ الجبل ، والذى تولى عليهم من سنة ١٢٢٠ م إلى سنة ١٢٥٥ م يقال إن هذا الرجل اختار وادياً فسيحاً بين جبلين ، وأحاطه بقلاع وأسوار عالية وغرس فيها جنة أرضية تنمو بها أشجار الفاكهة والأزهار العطرة . وتنساب فيها جداول من الماء الصافى واللبن والعسل والخمر ، وتتخللها قصور أنيقة زينت بأثاث مزخرف بالذهب والجواهر . وترتع فى جنباتها فتيات جميلات ، يرقصن ويغنين ويعزفن على الآلات الموسيقية .

فإذا أراد شيخ الجبل أن يغتال أميراً عمد إلى اختيار فتى

من أتباعه معروف بالجرأة والإقدام ، ويرسل فى طلبه ويستقبله فى قلعته الحصينة ويتحدث معه فى الدين وضرورة التمسك به ، ويسهب فى وصف الجنة التى أعدت للمؤمنين . وفى أثناء الحديث يقدم للفتى شرابٌ لذيذ الطعم ممزوج بالحشيش ، فيحتسى جرعات منه ، تتخدر بها أعصابه على الأثر ويستولى عليه النوم . فيحمل إلى الحديقة ، وعندما يفيق يجد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، فينصرف إلى التمتع بالمأكل والمشرب والانهماك فى الملذات الجنسية ثم يسقيه الفتيات شراب الحشيش ، فتعتريه غيبوبة يحمل فى أثنائها إلى القلعة . وعند ما يصحو يتساءل أين كان ؟ فيجيبه شيخ الجبل : لقد هيأت لك زيارة عابرة للجنة . فيلتمس منه أن يعيده إليها فيجيبه قائلا : إن الحياة الأبدية فيها حفت بالمكاره ، وتستلزم منك الإقدام على عمل دينى واجب النفاذ ، وهو أن تقتل الأمير فلاناً ، فإذا أصابك مكروه فى تأدية هذا الواجب حملتك الملائكة إلى الجنة لتحيا فيها حياة سرمدية ، وإذا عُدت سالماً سهلت لك سبيل الوصول إليها . ولا يساور الفتى شك فيما يسمع لسذاجته واعتقاده الراسخ فى زعيمه الدينى ، فينصرف وقد عقد النية على تأدية الرسالة التى عهد إليه بها .

ورواية ماركو بولو محتملة الوقوع على ما بها من غرابة ،

إذ الثابت أن شيوخ الجبل استغلوا نفوذهم الدينى وبساطة أتباعهم فى الوصول إلى أغراضهم الشخصية . وكان كثير من أمراء آسيا يخشونهم ويتقربون إليهم ، ويتنازلون لهم عن بعض أملاكهم تجنباً لأذاهم ؛ وكان لأتباعهم فى سورية نشاط بالغ الأثر . وقد سماهم الصليبيون « أساسين » (Assassins) وهى محرفة من كلمة حشاشين . وأخذها عنهم الأوربيون ، وأطلقوها عامة على الذين يقترفون جريمة القتل .

بغداد ودلهى

بعد أن أخضع تيمور الفرس وراضوا أنفسهم على حكمه فكر فى الاستيلاء على بغداد التى بقيت لها شهرتها فى العالم الإسلامى وإن كانت تقلبات الزمن قد طوحت بمجدها وعظمتها . وكان حاكمها السلطان أحمد الجلايرى لا يملك من السلطنة إلا اسمها ، ويدين بمركزه للحماية التى يستمدها من مماليك مصر الذين كانوا يحكمون فلسطين ودمشق .

وسار تيمور نحو بغداد ودخلها دون مقاومة ، لأن السلطان أحمد لم يفكر فى الدفاع عنها وفر إلى مصر . وفرض تيمور جزية

على بغداد وأقام عليها حاكماً من التتر ، وعاد إلى سمرقند . ثم أوفد رسلا إلى سلطان مصر الناصر ناصر الدين فرج يطلبون منه أن يخلد إلى السلم وأن يعمل على تبادل التجارة بين الشرق والغرب . واشمأز السلطان من لهجتهم وغطرستهم فأمر بقتلهم . ثم سار بجيش قوى نحو بغداد وطرد التتر منها وأعاد للسلطان مركزه . وتغاضى تيمور عما لحقه من المصريين لأنه كان يعد العدة لغزو الهند فقصدها سنة ٨٠٢ هـ — ١٣٩٩ م ماراً بمدينة كابل ، واجتاز ممر خيبر بتسعين ألفاً من جنوده ، وشق طريقه إلى دلهى فتصدى له السلطان محمود ولكنه باء بالهزيمة ولم تنفعه الفيلة فى تشتيت التتر ، لأنهم لم يخافوا منها بالرغم من أنهم لم يروها من قبل . وكانوا يقذفونها بمشاعل ملتهبة فتفر مذعورة . واضطر السلطان محمود أن ينجو بحياته لاجئاً إلى الجنوب . وبهذا أصبحت الأقاليم الشمالية من الهند تابعة لتيمور ، فأقام عليها حكاماً من التتر ، وجمع منها كنوزاً ونفائس وأموالا لا يحصيها عد ، وعاد بها إلى سمرقند .

ودخل تيمور عاصمته للمرة الثامنة دخول الفاتح . وخرج أهلها لاستقباله وقد تجملوا بأبهى الثياب ، وأقاموا الزينات على بيوتهم وحوانيتهم . واكتست الطرقات المؤدية إلى القلعة بالأبسطة والأقمشة الحريرية القرمزية . وأقبلت سراى خانوم فى

موكبها الفخم لتحيي زوجها ، وتستمتع برؤية ابنها العزيز شاه رخ ، وجاءت خان زاده فى حاشيتها لتطمئن على عودة ولديها محمد سلطان وبير محمد . ومر الركب الملكى بين تهليل الجماهير وهتافهم ، وقد أحاط الأمراء والقواد بتيمور ، وأخذوا ينثرون تحت قوائم فرسه حفنات من الذهب واللؤلؤ والجواهر ، فتهافت الشعب عليها والتقطها . وفجأة هدأت الحناجر وساد الصمت وشخصت الأبصار إلى منظر غير مألوف لم يشهده أحد من قبل .

مئات من الفيلة تسير متباطئة مختالة ، وتكاد الأرض تميد من فرط ثقلها وأحمالها ، وقد كسيت أجسامها بالحرير ونقشت على رءوسها وخراطيمها زخارف ملونة بديعة الصنع ، وتساءل الناس عما تحمله هذه الحيوانات الضخمة الوافدة على بلدهم ، فعلموا أنها تحمل كنوز الهند وثروة ملوكها إلى خزائن سمرقند .

تجميل العاصمة

كان من عادة تيمور أن يقيم فى عاصمته تذكاراً لكل انتصار يناله فى الحرب ، ولذلك لم تمض على عودته من الهند ثمانية أيام حتى أمر بتشييد مسجد كبير يسع آلاف المصلين . وانتهى بناؤه فى ثلاثة أشهر فقط ، مع أنه حوى ٤٨٠ عموداً من الصخر المصقول . وغطى فناؤه بالرخام الناصع البياض ، ونقشت جدرانه بالآيات القرآنية ، وطعم المنبر بالذهب والفضة . ويقال إن قطع الأحجار من الصخور استلزم وحده تشغيل خمسمائة عامل .

وكان تيمور يحب عاصمته حباً جماً ، فزينها وزخرفها بأبدع ما وصل إليه الفن فى عهده ، حتى أصبحت أجمل بلد فى آسيا . يرى السائر فى طرقاتها ميادين فسيحة وحدائق غناء ، وقصوراً عالية ، ومساجد أنيقة ، ودوراً للكتب ، وحديقة للحيوان ، ومتحفاً لآلات الحرب ، ودوراً للملاهى ، تعرض فيها أعمال الفروسية وألعاب الحواة السحرية ، والجرى على الحبل وغير ذلك من أنواع التسلية . وعنى تيمور بأن يجلب إلى بلده مشهورى العلماء والفلاسفة من فارس وبغداد والهند وغيرها . ولم

ينس المهندسين والأطباء والنابغين فى الفن والصناعة .

وقد لاحظ مرة أن سوقاً تجارية ضاقت بالوافدين عليها والمارين فيها ، فأمر بهدمها فى الحال وإنشاء شارع تجارى يمتد من الميدان الرئيسى فى المدينة إلى النهر . وعهد بالإشراف على هذا العمل إلى اثنين من الأمراء ، على أن يتم فى عشرين يوماً فقط ، وأنذرهما بالإعدام إذا تهاونا فى تنفيذ أمره .

واشتغل جيش من العمال ليل نهار فى هدم المبانى القديمة وتمهيد أرض الشارع ، وإقامة الحوانيت على جانبيه ، ونقل التجار والصناع إليها . ومضت المدة المحددة فمر تيمور فى الشارع الفسيح ، وتفقد منشآته ، واطمأن قلبه لأنه زود مدينته بمرفق تجارى عظيم .

وذهب الأهالى الذين هدمت مبانيهم إلى قضاة المدينة وطالبوا بتعويض عن الخسائر التى لحقتهم ، وتشجع أحد القضاة فأبلغ الأمر إلى تيمور ، فغضب وتساءل قائلا : « أليست البلد بلدى » ؟ فارتعدت فرائص القاضى وقال : نعم يا مولاى ولم يزد عليها كلمة . وفكر تيمور لحظة ثم أمر أن يصرف للأهالى ما يستحقون من تعويض .

وكان لتيمور مسجد متنقل . أجزاؤه من الخشب المتين المزخرف والزجاج الملون . يحمله معه فى غزواته على عربات

كبيرة . ويأمر بنصبه كلما أراد تأدية الصلاة .

أما قصوره فى سمرقند فكانت مضرب المثل بما حوته من كنوز ونفائس . ففى أحدها غرست شجرة عالية ساقها من خالص الذهب وغصونها وأوراقها من الفضة ، وتتدلى منها الأحجار الكريمة والجواهر بأشكال الفاكهة وألوانها . وتظهر بينها طيور من الذهب الملون باسطة أجنحتها ، وموجهة مناقيرها نحو الفاكهة كأنها تلتقطها .

وكانت الحفلات التى تقيمها كبرى زوجاته « سراى خانوم » لضيوفها مظهراً للبذخ والترف المقطوع النظير . فالأطباق من الذهب الخالص ، والكؤوس مزخرفة بالدرر والياقوت الكبير الحجم ، والأثاث مطعم بالجواهر الكريمة . وثوبها الحريرى موشى بالذهب والماس ، ويحمل طرفه من الخلف خمس عشرة وصيفة . وهى تكاد تنوء بحمل تاجها الذى نضدت فيه مجموعات متكاثفة من الجواهر النادرة المثال .

وكانت هى السيدة الأولى فى البلاد ، وذات نفوذ لا يحد . وقد حدث أن الأمير سيف الدين استحضر معه من إيران جارية جميلة تسمى « شادى ملخ » . ووقع فى حبها الأمير خليل بن خان زاده من ميران شاه فأهداها إليه سيف الدين . فتملكت قلبه بأساليب الفتنة والغواية ، وأقنعته بأن يتزوجها رسمياً . وأراد

أن يحقق رغبتها . وكان تيمور إذ ذاك فى الهند وعلم بالخبر ، فأرسل أمراً بإعدامها فى الحال . ولم يجرؤ خليل أن يقاوم أمر جده ، فلم تجد الفتاة المسكينة ملجأ سوى سراى خانوم فطرحت نفسها تحت قدميها وتضرعت إليها أن تنقذ حياتها وأخبرتها أنها موشكة أن تضع مولوداً من خليل ، فلان قلبها وقالت إذا كان هذا حقاً فسيعفو عنك تيمور . ثم أمرت بحجزها وحيدة فى إحدى المقصورات ، وشددت الرقابة عليها حتى لا تفر أو يقترب منها إنسان . ولما عاد تيمور وأخبرته زوجته بما حدث لم يغضب لمخالفتها أمره وعفا عن الفتاة .

النزاع مع الأتراك

بلغ تيمور الرابعة والستين من عمره ولكنه احتفظ بنشاطه الجثمانى وحدة ذكائه . وكان يحلم دائماً بغزو الصين وضمها إلى ممتلكاته . وأدرك أن هذا المشروع الخطير يكلفه جهداً شاقاً ، ويضطره للتغيب عن بلاده بضع سنوات . ولم يكن آمناً على حدوده الغربية حيث الأتراك والمماليك الذين قد ينتهزون انهماكه فى حرب طويلة الأمد مع الصين ليحتلوا ولاياته الغنية المتاخمة لهم.

ولهذا عول على أن يوطد ملكه فى الغرب . ولا يتحقق هذا إلا بالقضاء على سلطة الأتراك والمماليك . وما كادت تختمر عنده هذه الفكرة حتى بادر بتنفيذها . لقد عاد من الهند فى مايو (١٣٩٩م – ٨٠٢هـ) وفى شهر سبتمبر كان قد حشد جيشاً جراراً قوامه مائة وعشرون ألفاً من الجنود التتر الأشداء ، واتجه به غرباً ، وقطع نحو ألف ميل فى أواسط آسيا مجتازاً سهولها وأنهارها وصحاريها ، حتى وصل إلى القوقاز ، وكان أهلها الجورجيون قد ثاروا عليه وطردوا حكامه . فأغار على بلادهم ، وسحق جيشهم ، وهدم كنائسهم ، واقتلع زرعهم وخرب ديارهم بالسيف والنار ، فاستكانوا له وخضعوا لحكمه .

وبلغه أن السلطان أحمد فر من بغداد تاركاً حاميتها للدفاع عنها ولجأ إلى تركيا ، فكتب إلى بايزيد الأول سلطان الأتراك يخبره بالنزاع القائم بينه وبين جيرانه ، وطلب منه أن يكف عن مساعدتهم أو حمايتهم . وكان بايزيد أقوى ملوك أوربا فى هذا الوقت . وقد استطاع فى سنة ١٣٩٦ م أن يصد جموع الصليبيين فى الحملة الأخيرة التى قادها سجزمند Sigismund ملك المجر ، واشترك معه فيها معظم ملوك أوربا . وكان بايزيد معتزاً بقوته مزهواً بملكه ، وغضب من أن يخاطبه بمثل هذه اللهجة رجل من التتر مهما بلغ شأنه ، فرد عليه قائلا : « اعلم

أيها الكلب المدعو تيمور أن الأتراك لا يتخلون عن حماية أصدقائهم ، ولا يحجمون عن قتال أعدائهم » فكتم تيمور غيظه واكتفى بأن يرد عليه قائلا « اعمل بنصيحتى حتى لا تندم » فثارت ثائرة بايزيد وأرسل إليه خطاباً مملوءاً بالوعيد والتهديد ، وبدأه باسمه مكتوباً بالذهب ووضع تحته كلمة تيمور الأعرج بحروف سود صغيرة ، وختمه بقوله إنه سيسحق عدوه ويغتصب زوجاته .

وما كان لمثل تيمور أن يحتمل هذه الإهانة ، فبيت نيته على أن ينتقم من بايزيد ويجعله مثلا للسخرية والمهانة . وبدأ يغزو آسيا الصغرى عن طريق وادى أرضروم ، فاكتسح مدنها حتى وصل إلى سيواس سنة ١٤٠٠ م ودخلها عنوة بعد أن فر حاكمها التركى . ولم يمس تيمور سكانها المسلمين بأذى ، ولكنه جمع أربعة آلاف أرمنى حاولوا مقامته ، وقبرهم أحياء فى الخندق المحيط بالمدينة .

محنة دمشق وبغداد

لم يشأ تيمور أن يواصل تقدمه فى آسيا الصغرى فانحرف إلى حلب على أعالى الفرات وانتزعها من المصريين ، ثم اتجه نحو دمشق ، فلم تقاومه ، ورضيت بالشروط التى فرضها عليها . ولكنه لما رحل عنها هجمت حاميتها المصرية على مؤخرة جيشه وفتكت بها وبددت شملها . ولكن تيمور استطاع أن يعيد تنظيم صفوفها وكر راجعاً إلى المدينة ودخلها قسراً وأطلق رجاله للسلب والنهب والقتل ، ثم أشعل النار فيها فتقوضت مبانيها ودفنت جثث القتلى تحت أنقاضها . وحانت منه لفتة إلى قبة المسجد الأموى وهو طعمة للنار ، فأعجب بها وأمر مهندسيه أن يرسموا صورة لها ، واتخذها نموذجاً للقباب التى شيدها فيما بعد بسمرقند . وكانت أولاها تلك القبة التى أقامها فوق قبر منسوب لسيدة تدعى بىبى خانوم . ويقول ابن بطوطة إن القادم إلى المدينة من أى اتجاه يرى هذه القبة من بعد كأنها معلقة فى السماء . وانتقل شكل هذه القبة إلى الهند ، وأخذها الروس عن التتر فزينوا بها جميع كنائسهم . وقد أقيمت هذه القبة فوق القبر الشهير المعروف باسم « تاج محل » الذى كان معدوداً من

عجائب الدنيا السبع ، وقد شيده أحد أحفاد تيمور المسمى «شاه جيهان» على مقربة من مدينة «أجرا» التى كانت عاصمة للهند ، وجعله مثوى لرفات زوجته المحبوبة «ممتازى محل» وأمر أن يدفن فيه بقربها . وقد استغرق بناؤه ثمانية عشر عاماً من سنة ١٠٤٢ هـ ـ ١٦٣٢م إلى سنة ١٠٦٠ هـ ـ ١٦٥٠ م . ولما بدأ العمل فيه حرم على الهنود أن يقيموا معابد لهم . وقد نقشت على جدرانه آيات قرآنية مرصعة بالجواهر الكريمة . فلا عجب أن ينفق فيه ثلاثة ملايين من الجنيهات .

وبعد الكارثة التى حلت بدمشق عاد تيمور إلى حلب ، وهناك علم أن قائد الحامية التى تركها السلطان أحمد فى بغداد مهتم بتحصينها وتقوية وسائل الدفاع عنها . وكانت بغداد مفتاح نهر دجلة ومركزاً حربياً خطراً ، إذا تمكن المصريون من احتلاله بجيش جديد ثم أقبل بايزيد من أوربا وانحدر إلى آسيا الصغرى ، أصبح الجيش التترى بأسره مهدداً بالهلاك .

وكان لزاماً على تيمور أن يسرع فى الاستيلاء على بغداد ، فسار إليها فى مائة ألف مقاتل ، وحاصرها وضرب نطاقاً حولها محيطه اثنا عشر ميلا ، وأقام على نهر الدجلة قنطرة من السفن لتسهيل انتقال الجند من ضفة إلى أخرى . واستمر الحصار أسبوعاً ، ثم أخذ الجند يحفرون الأسوار من أساسها ، ويلقون

فى الحفر قطعاً من الخشب ، ويصبون عليها الزيت ثم يشعلونها ، فتهدمت أجزاء من السور ، وتسرب منها الجيش إلى داخل المدينة ، وتغلب على الحامية وأفناها عن آخرها . وصب تيمور جام غضبه على الأهالى ، فقتل منهم تسعين ألفاً وفصل رءوسهم ، وبنى بها مائة وعشرين هرماً ، ثم أمر بهدم المبانى وإشعال النار فيها . أما المساجد فقد تركها قائمة . وبهذه المحنة أصبحت دار السلام منزلا قفراً ينعى من بناه .

مصير بايزيد الأول

سقطت بغداد فى سنة ٨٠٤ هـ — ١٤٠١ م ولم يبق فى غربى آسيا عدو يخشاه تيمور أو قوة تهدده . ولكنه كان دائم الحذر من « بايزيد » موقناً أن هذا الخصم العنيد لن يرضى بضياع ولاياته الأسيوية ، وأنه سيقبل من أوربا بجيش زاخر ليطرد التتر ويقتص منهم .

وأعد تيمور العدة لملاقاته ، فرحل إلى « تبريز » التى اتخذها قاعدة لأعماله الحربية ، وأرسل إلى حفيده الأمير محمد (وهو ابن خان زاده من جاهنجير) أن يوافيه بنجدة من الجيش المرابط فى سمرقند . ولم تمض بضعة شهور حتى أقبل الأمير بجيش عظيم توافر فيه العدد والعتاد . وأخذ تيمور يفكر فى الخطة الحربية التى تمكنه من التغلب على عدوه .

وكان بايزيد منهمكاً فى حصار القسطنطينية ، ويتوقع سقوطها يوماً بعد آخر . وما إن علم باستيلاء التتر على « سيواس » حتى رفع الحصار وركب البحر ونزل إلى بروسة بجيش يربو على مائتى ألف جندى ، وسار به إلى أنقرة . وعلم تيمور بقدوم خصمه فشد الرحيل من تبريز إلى سيواس وعسكر بها .

واختار بايزيد ميداناً فسيحاً يصلح لإدارة المعارك الحربية ، وضرب فيه معسكره جاعلا أنقرة خلفه .

ومرت ثمانية أيام فى سكون رهيب لا يدرى كلا الخصمين ما يدبره له الآخر . وجاء نفر من الكشافة الأتراك ، وأخبروا بايزيد أن تيمور خرج من « سيواس » بجيشه ، ولم يترك فيها سوى حاميتها . فسألهم إلى أين اتجه ؟ فقالوا لا ندرى ، ولكنا نواصل البحث . وعلى حين غرة هجمت فصيلة من التتر على الجيش التركى من أقصى ميمنته ، واشتبكت معه فى معركة حامية ، ثم عادت أدراجها بسرعة . وتوهم بايزيد أن جيش التتر فى الجنوب حيث فرت فصيلتهم ، فأمر جيشه بالرحيل فى هذا الاتجاه ، وجد فى السير بضعة أيام باحثاً عن عدوه فلم يعثر عليه . وفى هذه الأثناء كان تيمور يقطع الطريق إلى أنقرة ووصل إلى معسكر « بايزيد » فاحتله ونظم جنوده فيه . ولم يحاول أن يستولى على أنقرة ، واكتفى بالاستعداد لملاقاة خصمه .

وأدرك بايزيد أنه خدع ، وأن مواصلة البحث لا تجدى نفعاً ، فعاد أدراجه ، قاصداً معسكره ، ولكنه وجد عدوه قد سبقه إليه ، فعز عليه أن يتراجع ووطد العزم على مباشرة القتال .

بدأت المعركة فى يوم قائظ من صيف سنة ١٤٠٢ م ،

وكانت الكثرة الغالبة فى الجيش التركى من المشاة ، أما التتر فكان جل اعتمادهم على الخيالة وهؤلاء أصلح للقتال فى الميدان الفسيح الذى بلغت جبهته ١٥ ميلا . فلا عجب أن تدور الدائرة على الأتراك بالرغم من بسالتهم وشدة بأسهم . بدأت المعركة فى الصباح وانتهت عند غروب الشمس ، وأصيب الأتراك بخسارة فادحة ، واضطرت البقية الباقية منهم أن تفر مذعورة فى أنحاء متفرقة ، فتعقبهم التتر وأبادوا بعضهم ، وشردوا البعض الآخر . واشترك بايزيد فى القتال بنفسه وأبلى بلاء حسناً ، وقتل عدداً كبيراً من أعدائه ، ولما أيقن أنه مهزوم لا محالة حاول الفرار ، ولكن فرسه أصيبت بسهم فسقطت ، ولم يستطع أن ينجو بنفسه فوقع فى الأسر . وسيق مكبلا إلى تيمور فاستقبله واقفاً ، وقد ارتسمت على فمه ابتسامة وأمر أن تفك قيوده . فقال بايزيد : لا يليق أن تسخر من رجل تخلى عنه ربه . فرد عليه تيمور قائلا : لست ساخراً ولكنى أبتسم لأن الله قد قسم العالم بين رجلين أحدهما أعرج ، والآخر أعمى ، يشير بذلك إلى الخطاب الذى أرسله بايزيد إلى تيمور ودعاه فيه بالأعرج وهدده باغتصاب زوجاته ، ثم أردف تيمور قائلا « على أنى أعلم ما كان يصيبنى لو قدر لك النصر » .

وسأل بايزيد عن أبنائه فأمر تيمور بالبحث عنهم ،

واتضح أنهم لاذوا بالفرار ما عدا اثنين أحدهما قتل والآخر وجد ضمن الأسرى ، فجىء به معززاً مكرماً إلى والده .

وأكرم تيمور معاملة بايزيد ، فأعد له وسائل الراحة والمتعة فى معيشته ، إلا أنه شدد الرقابة عليه حتى لا يفلت منه .

واهتم تيمور بعد ذلك بتوطيد سلطته فى آسيا الصغرى ، وكان هذا أمراً يسيراً ، لأن مدنها الشهيرة كأنقرة ونيقيا وغيرهما فتحت أبوابها له دون مقاومة . وسار القائد نور الدين إلى بروسة فاستولى على كنوز بايزيد وعرشه وتيجانه وأسر زوجاته وجواريه . وجمع مكتبة بيزنطة الشهيرة التى كان قد اغتصبها بايزيد وأودعها خزائن بروسة . وحمل كل هذه الأسلاب إلى تيمور . وكانت مدينة أزمير فى أيدى فريق من الصليبيين ينتسبون إلى القديس يوحنا St. John وسمع تيمور أنها استعصت على بايزيد ، بالرغم من محاصرته لها ست سنوات متوالية . فشد الرحيل إليها ولم تقف أمامه سوى أسبوعين ، واضطر الصليبيون أن يخلوها لاجئين إلى السفن الراسية فى الميناء . وجاء أسطول من جزيرة رودس لإنقاذها ، فحياه تيمور بقذيفة ألقاها على أقرب سفينة . ولم تكن هذه القذيفة سوى رأس أحد الأسرى من الصليبيين . واقترب الأسطول من المدينة، ولم يكن تيمور مستعداً لموقعة بحرية ، فأخلى المدينة ولكنه ترك فيها

تذكارين لزيارته القصيرة ، على هيئة هرمين بناهما من جماجم الصليبيين .

وانصرف تيمور بعد ذلك إلى تطهير آسيا الصغرى من الأتراك ، فمحاهم من أرضها . وكان السلطان أحمد الجلايرى قد أحس بما سيحل بآل عثمان ، فبادر بالرحيل إلى مصر طامعاً فى حماية المماليك . ورأى « قره يوسف » أن جزيرة العرب أفضل ملجأ ففر إليها .

ونظر تيمور إلى مصر فرأى الطريق ممهدة لها خلال فلسطين ، واتخذ الأهبة لغزوها ، ولكن سلطانها استرضاه بقبول دفع الجزية والدعاء باسمه فى المساجد وامتثل لأمره ، فقبض على خليفة بغداد الذى لجأ إليه وزجه فى السجن .

ولم يشأ تيمور أن يدخل أوربا مع أنه كان على أبوابها وقد شعر بالحنين إلى وطنه ففضل أن يعود إليه .

وقد عاودته ذكرى الإهانة التى لحقته من بايزيد لما عرض بكرامة زوجاته ، فانقاد لغريزة الانتقام التى فطر عليها التتر ، وعول على أن يرد الإهانة بمثلها . فأمر أن يقام حفل عظيم ابتهاجاً بانتصاره على آل عثمان ، ودعا إليه الأمراء والقواد وكبار الضباط ورجال ديوانه . وطلب من بايزيد أن يحضر ، فامتثل للأمر . وقدم إليه تيمور تاج آل عثمان ، وشارات

ملكهم ، فلبسها متوهماً أن تيمور يبالغ فى إكرامه . ودارت ألوان الطعام وأصناف الشراب ، وعلا الضجيج والصخب بين نغمات الموسيقى وأغانى التتر القومية التى تذكرهم بأبطالهم وانتصاراتهم فى الحروب ، وعلى حين غرة سيق إلى الحفل فريق من النساء اللائى جردن من ثيابهن ، وأمرن أن يقمن على خدمة الحاضرين . وتفرس فيهن بايزيد فإذا هن زوجاته وجواريه وبينهن دسبينا Despina الصربية التى كان يحبها حباً يفوق العبادة . فكاد يصعق من شدة الخجل ، وقام مهرولا يريد الخروج ، فأمسك به اثنان من الضباط وسيراه بين الجموع المترنحة من تأثير الشراب ليستمع إلى عبارات السخرية والهزء . وساقاه أخيراً إلى مخدعه . وعاد تيمور إلى رشده وأحس بأنه بالغ فى إذلال أسيره ، فأرسل إليه « دسبينا » قائلا : إنه يعيد إليه زوجته المحبوبة . وضاق بايزيد ذرعاً بالحياة فمرض ومات بعد عدة شهور .

ويشاع عن تيمور أنه سجن « بايزيد » فى قفص وسيره فى ركابه من بلدة إلى أخرى معرضاً إياه لاستهزاء الجماهير . وهذه الرواية تتنافى مع الواقع ، ومنشؤها شعر للمؤرخ ابن عربشاه جاء فيه أن ابن عثمان وقع فى فخ الصياد وحجز كأنه طير فى قفص . وأخذ بعض المؤرخين هذه العبارة بظاهر معناها .

وقائل هذا الشعر كان فى خدمة السلطان أحمد الجلايرى ، ثم رحل إلى سمرقند وأقام بها وكتب تاريخاً مفصلاً لتيمور .

ولا شك أن تيمور أساء إلى بايزيد عندما استقبله بعد واقعة أنقرة ، وأذل كبرياءه فى الحفلة الحاشدة التى دعاه إليها . وفيما عدا ذلك فقد أكرمه وأحاطه بعطفه . ولما مرض أرسل إليه أطباءه ليعنوا بصحته . وكان طبيعياً ألا يقوى بايزيد وهو مريض على ركوب الخيل فى السفر مع تيمور إلى سمرقند ، فأعدت له عربة لينام فيها هادئاً مستريحاً . ونشأت من ذلك فكرة القفص ذى القضبان ، وما يتبعها من تعريض بايزيد لسخرية الجماهير .

تيمور الحزين

ويشاء القدر أن ينقلب فرح تيمور بنصره حزناً عميقاً ، لأن حفيده الأمير محمد أصيب بجرح فى أنقرة وأصبح طريح الفراش يقاسى من الألم أشده . وطال مرضه فلم يطق تيمور صبراً وبادر بالرحيل إلى معسكر حفيده ولزم جانبه إلى أن أسلم روحه . وكان هذا الأمير قرة عين جده ، ومعبود الجيش لشهامته الفائقة ودماثة أخلاقه .

وقد شعر تيمور أن هناك إرادة فوق إرادته تسلبه أعز الناس إليه . فقد مضى جاهنجير وتبعه عمر شيخ . وهذا حفيده الذى كان يعده لوراثة ملكه قد اختطفه الموت وهو فى ربيع الحياة .

وأمر تيمور أن تحنط جثة فقيده ، وأن تحمل معه إلى سمرقند . وكم كان يود أن يفتديه بالكنوز التى تكدست عنده من غزوته الأخيرة وفتوحاته السابقة . ووصل الركب إلى تبريز ، فخرجت « خان زادة » لتستقبل جثمان ابنها ، وقد ذاب قلبها حزناً وغماً . وسمع تيمور بكاء أطفال الفقيد وعويلهم فكادت نياط قلبه تتمزق ، وهرول إلى سرادقه واعتكف عن الناس

فترة طويلة كعادته فى مثل هذه الظروف .

وبقى تيمور فى تبريز إلى أن ولى الشتاء وأقبل الربيع . وفى هذه المدة نظم إدارة البلاد التى فتحها ، وأمر بإعادة بناء المدن التى دمرت كبغداد وجرجانية وغيرهما ، ثم سافر إلى سمرقند . وكان أول عمل باشره بها بناء قبر عظيم للأمير محمد ، تعلوه قبة من الرخام الأبيض المصفح بالذهب . ثم فحص عن أعمال الحكام الذين تولوا إدارة البلاد فى أثناء غيابه ، فكافأ بعضهم وأمر بإعدام البعض الآخر .

ولأمر غير معروف أمر بإقامة الأعياد فى البلاد شهرين كاملين ، وحذر أن يسأل أحد أخاه «لِمَ تفعل هذا» . لقد بلغ تيمور التاسعة والستين من عمره فهل بدأت قواه العقلية تتزعزع ؟ أو أن أحزانه جاوزت الحد فانقلبت إلى الضد ؟ أو أنه يريد أن ينفس عن كربه ؟ ومهما كان السبب فقد كان أمره مقدساً لا يجرؤ أحد على مخالفته . واحتفل الشعب بهذين الشهرين كأن أيامهما عيد متصل ، وأقيمت الزينات والأفراح فى طول البلاد وعرضها . وأقبل على سمرقند مندوبون من عشرين دولة ، بينهم سفراء من الصين ومصر وأسبانيا . واستقبلهم فى حفل رسمى مهيب ، وتقبل هداياهم العظيمة . ومن غريب أمره أنه أمر أن يجلس سفير أسبانيا فى مكان أعلى من سفير الصين ،

قائلا : إن الأول قادم من جهة ابنه وصديقه ملك أسبانيا ، أقوى ملوك الفرنج الذين يعيشون فى الطرف الآخر من العالم ، أما مندوب الصين فلا يمثل إلا لصاً أثيماً . . .

آخر المطاف

لم تطل إقامة تيمور فى سمرقند سوى ثلاثة أشهر ، جمع بعدها مجلس الأمراء ، وقال لهم : « لقد أسسنا للتتر إمبراطورية عزيزة مهيبة . وأزلنا فى سبيل تدعيمها عروش الملوك والسلاطين والأكاسرة ، وسيخلد التاريخ ذكرنا ، وقد كنتم خير عون لى فى الحروب ، وكان النصر دائماً حليفكم . وقد غزونا كل آسيا ما عدا الصين ، وليس من العسير عليكم أن تكتسحوا هذه البلاد الوثنية . وإليها أقصد فهلموا للرحيل معى » .

وإذا قال تيمور كلمة فلا راد لها . كان الشتاء قد أقبل وهبت العواصف تلفح الوجوه ببردها القارس . وتساقط الثلج فغطى الطرقات بطبقة سميكة بيضاء ، وتجمدت مياه الأنهار . وفى هذه الظروف القاسية خرج من سمرقند جيش كثيف يبلغ مائتى ألف رجل ، مولياً وجهته إلى الصين ، وقد عهد تيمور بقيادة الميمنة إلى حفيده « خليل » .

واجتاز الجيش نهر سمرقند ، وتلفت تيمور من فوق فرسه ليلقى نظرة على عاصمته ، فلم يستطيع أن يتبين قبابها ومآذنها وقصورها الشامخة . لقد ضعف بصره واسترخت أجفانه حتى

ليتوهم الناظر إليه أنه فى سبات عميق .

وواصل الجيش سيره إلى الشمال حتى بلغ مدينة أوترار على نهر السير ، وكان الماء قد جمد فيه إلى عمق مترين ، ورأى تيمور أن الرجال يموتون من تعرضهم الدائم لشدة البرد ، والخيل تسقط وتهلك ، فأمر أن تضرب الخيام ويأوى فيها الجيش .

وأقبل ربيع سنة ١٤٠٥ م فأمر تيمور أن يتهيأ الجيش للسير ، وفى اليوم الذى حدده قرعت طبول الحرب ، وصدحت الموسيقى بنغماتها العسكرية ، واصطفت فرق الجند بقوادها وأعلامها ليتفقدها القائد الأعظم كعادته ويتقبل منها التحية ؛ وجاء الحرس الخاص بثيابهم الزاهية وعدتهم الحربية الكاملة . ووقفت فرس تيمور البيضاء تحت الراية الملكية انتظاراً لقدوم صاحبها ، ولكنه لم يظهر . وطال انتظار الجيش عبثاً وتساءل عن السبب . لقد شاءت القدرة الإلهية أن تضع حداً لفتوحات تيمور ومطامعه فاستدعته إلى دار الأبدية .

مرض تيمور فجأة فى أوترار ، ولم يذع نبأ مرضه ، واستدعى إلى سرير مرضه أمهر الأطباء فلم يستطيعوا أن يردوا القضاء المحتوم ، وجاءت زوجته الأولى سراى خانوم لتبقى بجانبه وتتولى خدمته ، وشعر تيمور بدنو أجله فأرسل فى طلب الأمراء الذين رافقوه فى حملته الأخيرة ، فحضروا والتفوا حول

سريره برءوس خاشعة وقلوب حزينة وعيون تذرف الدمع الغزير . وجال ببصره فيهم ثم قال بصوت خافت : « احتفظوا بسيوفكم مشهورة بين أيديكم ، ولا تحزنوا ولا تمزقوا ثيابكم حداداً علىّ فهذا ضعف لا أرضاه . ولا تختلفوا فيتفرق شملكم وتصيبكم الهزيمة . وقد اخترت بير محمد بن جاهنجير ليرث ملكي فأطيعوه ، وشدوا أزره . وليجعل إقامته فى سمرقند ، ولتكن له السلطة المطلقة فى إدارة شئون البلاد القاصية والدانية ، ولتسند إليه رياسة الجيش . ولا تحجموا عن غزو الصين » .

وقام كل أمير وأقسم بين يدى تيمور يمين الإخلاص والوفاء لولى عهده مع الحرص على تنفيذ وصيته . وساد سكون رهيب ثم همس تيمور قائلا « كنت أحب أن أرى ابنى « شاه رخ » ولكن هذا مستحيل » ولفظ أنفاسه الأخيرة .

وغريب أن تجرى على لسانه كلمة « مستحيل » ، مع أنها لم تسمع منه فى الخمسين سنة التى قضاها فى الحكم .

واجتمع الأمراء برياسة نور الدين أكبرهم سناً ، واتفقوا على أن يواصل الجيش سيره إلى الصين لغزوها ، وبعثوا رسولا إلى « شاه رخ » فى هراة بخراسان ، وآخر إلى بير محمد فى الهند لإخبارهما بما وقع . وحثهما على التعجيل بالقدوم إلى سمرقند . ثم سيروا جثمان تيمور إلى سمرقند ، فى حراسة فرقة من الجيش يقودها « أولوغ بج » بن شاه رخ .

تنازع الأبناء

شذ خليل عن رأى الأمراء قائلا : إنه لم يحضر وفاة جده ولم يسمع وصيته ولم يقسم اليمين على احترامها . وسولت له نفسه أن يغتصب الملك . واستطاع أن يقنع الضباط فى فرق الجيش التى يقودها بالانضمام إليه وأسرع بالسفر إلى سمرقند ، ونادى بنفسه ملكاً عليها . وتمكنت أمه « خان زاده » بدهائها أن تستميل إليه حاكم المدينة فكان خير عضد له .

وبوغت الأمراء بهذه الثورة التى كانت أول بادرة للانقسام ، وعدلوا عن الرحيل إلى الصين ، وولوا وجهتهم شطر سمرقند ، فوجدوا أبوابها مغلقة دونهم ، مع أن سراى خانوم كانت فى مقدمة ركبهم .

وكان فى استطاعة نور الدين أن يقتحم المدينة بفرق الجيش الموالية للأمراء ، ولكنه آثر أن يتجنب حرباً داخلية ، وأخذ يترقب ما تتمخض عنه الحوادث .

وكان خليل شاباً مفتوناً طائشاً كأبيه ميران شاه . لعبت بعقله تلك الجارية الإيرانية « شادى ملخ » فتزوجها رسمياً وجعلها ملكة على التتر . واستغل سلطانه ففصل رجال الديوان

القدامى ذوى الخبرة والنفوذ ، واستبدل بهم طائفة من الفرس تجاريه فى ميوله ونزعاته . وقد بهرته الأموال الطائلة التى تكدست فى خزائن سمرقند فبعثرها بغير حساب . وكانت زوجته إذا أخذتها نشوة الخمر رمت الذهب والأحجار الكريمة من نوافذ قصرها ، ليلتقطها أى عابر سبيل . وأساءت هذه الفتاة إلى « سراى خانوم » التى أنقذتها من الموت ، فأوحت إلى زوجها أن يحرم عليها دخول سمرقند . واعتادت أن تمتهن كرامتها بألفاظ نابية فى الحفلات التى كانت تقيمها .

وجاء « بير محمد » من الهند فتغلب عليه خليل وهزمه وشتت جيشه . ورأى نور الدين وزملاؤه أنه لا مفر من تدخلهم لإقصاء خليل عن العرش ، فجمعوا الجيش الموالى لهم وهجموا على سمرقند واحتلوها بعد معارك دامية ، وقبضوا على خليل وسجنوه وطردوا زوجته ، بعد أن أهانوها وأذلوا كرامتها . ثم أعادوا « سراى خانوم » إلى قصرها لتتمتع بنفوذها السابق وتستعيد منزلتها من الشعب .

وأخيراً أقبل « شاه رخ » من خراسان بجيش جرار ، واستولى على المدينة وسلم زمام الحكم فيها إلى ابنه « أولوغ بج » . وفطن التتر إلى أن إمبراطوريتهم لا تتماسك أوصالها إلا إذا كان على رأسها رجل كشاه رخ قوى الشكيمة صائب الرأى ،

فخضعوا لحكمه وعاهدوه على أن يشدوا أزره ويخلصوا له الولاء .

وازدهرت إمبراطورية التتر على أيدى شاه رخ وأولوغ بج . فقد كانا محبين للسلم مبتعدين عن شرور الحرب ومآسيها . حريصين على تقوية الدفاع عن بلادهما وجعلها منيعة على أى طامع فيها . وقد امتازا بثقافة عالية وميل للعلم وتشجيع لنشره ، فرحل إليهما العلماء والفلاسفة والشعراء وعاشوا تحت رعايتهما ، وكان أولوغ بج يجيد الشعر ويتقن علمى الجغرافية والفلك . وقد بنى فى سمرقند مرصداً كان يأوى إليه ويقضى فيه الساعات الطويلة .

وقد تمكن أحفاد هذين العاهلين العظيمين أن يسجلوا نصراً لأنفسهم ، إذ فتحوا الهند وأسسوا فيها أسرة خلدها التاريخ باسم المغول العظام .

وكان طبيعياً على أثر موت تيمور وقيام النزاع بين أبنائه أن تحاول بعض البلاد التحرر من نير التتر . ولزم « شاه رخ » جانب الحكمة فلم يفكر فى إخضاعها مكتفياً بالبلاد الشاسعة الغنية التى ظلت مخلصة له راضية بحكمه .

وبدأت مصر فنقضت الميثاق الذى ارتبطت به مع تيمور . وعاد قره يوسف إلى قومه التركمان . ورجع السلطان أحمد الجلايرى إلى بغداد والياً عليها من قبل مصر . واستعاد الأتراك

قوتهم واحتفظوا بنفوذهم فى أوربا ، واستطاعوا أن يفتحوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م أى بعد موقعة أنقرة بإحدى وخمسين سنة . وتيسر للروس أن يتحرروا من نير التتر سنة ١٤٨٠ م على يد دوق موسكو الذى بدأ بتأسيس الإمبراطورية الروسية .

ولكن هل احتفظت سمرقند بمجدها وتغلبت على عاديات الزمن كما توهم تيمور . لقد لعبت هذه المدينة دوراً خطيراً فى تاريخ العالم . وأنجبت رجالا سادوا الشعوب والممالك وحكموها بيد من حديد . واحتلت فى آسيا مركزاً أشبه بروما فى أوربا فى عهد القياصرة العظام . ولكن تقلبات الزمن طوحت بمجدها وجردتها من نفوذها وسلطانها . فالقصور الشامخة والحصون المنيعة التى شيدها تيمور وأراد لها الخلود تداعت أركانها وعفت آثارها . والثروة التى كانت تتدفق إلى خزائنها من مختلف الأقطار انقطع سيلها ، ولما دخلها جيش الروس فى منتصف القرن التاسع عشر بحثوا عن المكتبة التى حملها تيمور من « بروسة » فلم يجدوا لها أثراً .

وزائر سمرقند اليوم يجد فيها ضريحاً ذا قبة عالية ، بداخله مدفنان أحدهما يعلوه حجر كبير مكعب الشكل لونه أسود ضارب إلى الخضرة ويرقد تحته تيمور . والآخر يتميز بحجر أبيض ويضم رفات رجل يسمى « مير سيد »

كان من أئمة الدين وصديقاً لتيمور .

وإذا استوقف الزائر عابر سبيل وسأله عن تيمور ، أجاب : لم أره ولا أعرف تاريخ حياته ، ولكنى أعلم أنه ثالث ثلاثة غزوا العالم وأخضعوه لسلطانهم . أولهم إسكندر المقدونى ، ويليه جنجيز خان ، ويعقبه تيمور . ولن يأتى بعد هؤلاء رجل يسود العالم بحد السيف .

شخصية تيمور

المطلع على حياة تيمور يحار فى تحليل شخصيته . والذين عاشوا معه وخبروه اختلفوا فى الحكم عليه . ومن هؤلاء اثنان كانا من حاشيته وكتبا تاريخاً مفصلا لحياته : شهاب الدين المعروف بابن عربشاه الذى وصفه بأنه سفاك ، ماكر ، باغ ، لا ترجى منه شفقة ولا رحمة ، وشريف الدين الذى قال : إن شجاعته سهلت له غزو آسيا من حدود الصين إلى تخوم اليونان ، وأنه كان سخياً حليماً مع الذين يطيعونه ، قاسياً فى البطش بمن يخالفونه . عادلا محباً للعلم والعلماء ، مشجعاً على نشر العلوم والفنون .

ولا شك أن الظروف التى أحاطت بحياة تيمور كان لها أثر فعال فى تكييف أخلاقه ، ومن المؤكد أنها أفقدته الثقة بالناس ، فعمه دبر مكيدة لقتله بغير مبرر . والأمير حسين أخو زوجته تخلى عنه فى موقف عصيب وسبب له الهزيمة بعد أن كان النصر محققاً . ولم يتورع عن استلام حلى أخته عندما قدمها له تيمور مع الضريبة التى فرضها عليه . وتكتميش الذى آواه تيمور وأكرم وفادته وتنازل له طوعاً عن بعض بلاده وأمده بمال غزير خان عهده ورد الجميل بالإساءة ، وفاجأه بحرب

شعواء يريد بها القضاء عليه وتبديد ملكه . ولا شك أن هذه التجارب القاسية أوحت إلى تيمور أن الوفاء لا وجود له فى العالم ، وأن البر والشفقة والحلم صفات ليس لها رد فعل سوى إثارة الشعور بأن صاحبها ضعيف خامل . وأن خير سياسة هى البطش والإرهاب ولو أديا إلى التضحية بالأرواح .

وتوالت على تيمور الأحزان بفقد زوجته الأولى التى أحبها من أعماق قلبه ، وموت ابنيه ، جاهنجير ، وعمر شيخ ، وحفيده محمد فى ريعان الصبا . ثم إصابة ابنه ميران شاه بالعته واعتدائه الشائن على زوج أخيه المتوفى . ومحاولة حفيده خليل أن يتزوج جارية إيرانية كانت من قبل سبية لغيره . كل هذا كان من شأنه أن يسلب تيمورأسباب التسلية والفرح بين أفراد أسرته . فلا عجب أن نراه يبحث عنها فى ميادين أخرى كساحات القتال التى تضمن له نشوة النصر والابتهاج بتفوقه على معاصريه من الملوك والأباطرة ، وفرض إرادته عليهم ، ولا غرابة أن يجيش صدره بنفثات خفية وذكريات مؤلمة ، فيأمر بإقامة الأفراح ستين يوماً كاملة دون أن يذكر لها سبباً .

ولتيمور صفات بارزة لا سبيل إلى إنكارها ، أظهرها الشجاعة الفائقة ، يشترك فى القتال مع جنوده ويضرب لهم مثلا أعلى فى الإقدام فلا يلبس درعاً تقى جسمه . ويتوجه وحيداً

لمبارزة خصمه تحت أسوار مدينته وعلى مرمى السهام التى قد يطلقها عليه حراسها . ولامتيازه بهذه الصفة كان يقدرها فى غيره ويكافئها بسخاء . ويمقت الجبان ويزدريه ويعرضه للسخرية .

وكان مواظباً على تلاوة القرآن حريصاً على تأدية فريضتى الصوم والصلاة ، وقد أعد مسجداً متنقلا يحمله معه فى رحلاته وغزواته ليقيم فيه الصلاة .

ومن حسناته حبه للعلم والعلماء ، وميله للفنون الرفيعة ، ولهذا زخر بلاطه بنخبة من رجال العلم والأدب والدين والفن ، وبالشعراء المجيدين ، وقد دفعته هذه العاطفة إلى أن يحمل إلى سمرقند مكتبة بيزنطة الشهيرة . وأن يجلب إليها نفائس الفن وثمرات الصناعات الدقيقة التى تقع عليها عينه فى البلاد التى يمر بها . ولا يفوتنا ذكر تلك العاطفة الجميلة التى أوحت إليه بمداعبة الشاعر الفارسى « حافظ » ومنحه إياه مبلغاً كبيراً من المال .

وكان جم النشاط حتى آخر رمق فى حياته . بلغ التاسعة والستين من عمره المملوء بالكفاح والجهاد ، فلم يمنعه الهرم من أن يتجهز لغزو الصين ، ويقصدها على رأس جيش كثيف ، فى جو عابس وبرد قارس وطبيعة ثائرة .

وكانت سياسته فى الحرب إحراز النصر بأيه وسيلة مهما استلزمت من نفقات وتضحيات . فقد يشعل النار فى مدينة

بأسرها ويذبح سكانها جميعاً ليثير الرعب فى مدينة أخرى فتستسلم له طائعة .

وكثيراً ما كان ينقاد لغريزة الانتقام التى هى دأب القبائل الرحل ، ومتى استسلم لها فلا حد لما يرتكبه من مظالم . ذبح فى أصفهان سبعين ألف رجل ، وبنى بجماجمهم أبراجاً فى شوارع المدينة لأن سكانها ثاروا على جنوده وقتلوا منهم ثلاثة آلاف رجل .

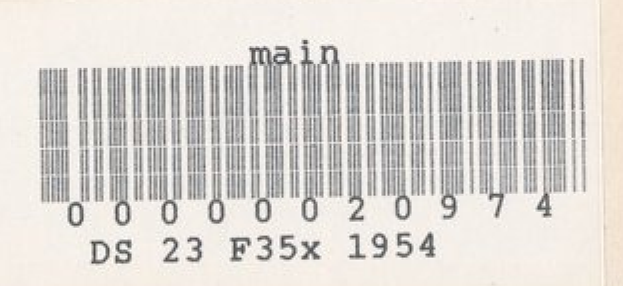
وكان أحياناً يراجع نفسه بعد أن تهدأ ثورة غضبه ، ويحاول أن يصلح ما فسد . يشعل النار فى المدن حتى تلتهمها ، ثم يأمر ببنائها من جديد ، كما حدث فى بغداد وجرجانية . ويمتهن كرامة بايزيد ويعرضه للسخرية فى جمع صاخب من حاشيته ، ثم يرسل إليه زوجته الصربية التى هام بها .

وقد حرص على أن يدير شئون ملكه بنفسه ، ويحاسب حكامه على كل صغيرة وكبيرة ، ويكافئ من يتوخى العدالة منهم ويقتل من يظلم الرعية . ولما علم أن ابنه ميران شاه أساء الحكم فى خوارزم عزله فى الحال ، ولم ينقذه من الإعدام سوى تدخل الأمراء وإلحاحهم فى طلب العفو عنه .

وكان جنود تيمور يحبونه ويطيعونه ويتنافسون فى إرضائه ، ولولا ذلك ما استطاع أن يخرج منتصراً فى كل وقائعه الحربية .

ولما تيسر له أن ينشىء إمبراطوريته العظيمة . ولا شك أنه امتاز بقوة سحرية خفية جذبتهم إليه ورفعت منزلته عندهم إلى مرتبة التقديس .

ونحن لا ننصف تيمور إذا حكمنا عليه بمعايير عصرنا الحاضر ، فقد عاش منذ ستة قرون فى ظروف عصيبة وحياة يسودها القلق والاضطراب ، ويزعجها التنافس المرير بين الملوك . ويصدق فيها مبدأ الحق للقوة . وفى هذا العهد أراد تيمور أن يجعل قومه التتر سادة لا مسودين ، أقوياء غير مستضعفين ، منضمين تحت لوائه الذى اعتزم أن ينشره فوق ربوع آسيا من شرقها إلى غربها . وسلك السبيل التى اعتقد أنها كفيلة بتحقيق غرضه . وقد سجل له التاريخ حسنات وسيئات . والطبيعة البشرية لم تتنزه عن الخطأ ، والعصمة لله وحده .


main
0 0 0 0 0 0 0 2 0 9 7 4
DS 23 F35x 1954




15 -3 1988